د. محمد عمارة



إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات

الأصولية . السلف . السلفية . السلفيون
التطرف . الغلو . الجاهلية . التكفير
الإرهاب . الاستحلال

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ
عَنْ مَعَانِي المُصْطَلَحَاتِ

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد .

إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات / تأليف محمد عمارة - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٨م .

١٦٢ ص ؛ ٢٠سم .

تدمك ٨ ٦٦٨ ٣٤٢ ٩٧٧

١ - الإسلام - دفع مطاعن .

٢ - الإسلام - حركات الإحياء والإصلاح والتجديد .

أ - العنوان .

٢١٦

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م عن عشر الجائزة للوسطى لثلث معنى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

إزالة الشبهات

عن معاني المصطلحات

الأصولية - السلف - السلفية - السلفيون
التطرف - الغلو - الجاهلية
التكفير - الإرهاب
الاستحلال

تأليف
د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

❊❊❊

تمهيد

تنطلق الفلسفة الإسلامية في رؤية الكون والنظر إلى الوجود، من الحقيقة القائلة بأن هذا الوجود فيه «الحق» – وهو الله سبحانه وتعالى – و«الخلق» الشامل لكل عوالم المخلوقات.

وتؤكد هذه الرؤية على أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.. وأن جميع من عدا الذات الإلهية وسائر ما سواها قائم على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. ليل ونهار.. سالب وموجب.. وفي كل عوالم النبات والحيوان خلق الله من كل زوجين اثنين.. وكذلك حال التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في عوالم الخلق للإنسان، وما في عوالمه هذه من أجناس وألوان وشعوب وأمم ولغات وقوميات وثقافات وحضارات وديانات وعادات وتقاليد وأعراف.. وشرائع ومناهج يتمايز فيها الاجتماع والمجتمعات..

ولقد دعا الله هذا الإنسان – مع هذا التنوع – إلى «التعارف» الذي يساعد على التعاون في ترقية العمران على هذا الكوكب الذي يعيش فيه الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وحتى يتم هذا التعارف والتعايش بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات - مع تعدد اللغات.. الذي هو آية من آيات الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] - كان لا بد - في الحوار بين أهل اللغات المختلفة والمتعددة - من ضبط وتحديد معاني المصطلحات المتداولة في المحاورات، والتي لها في كل لغة من اللغات مضامين ومفاهيم ومعانٍ مختلفة ومتميزة عن نظائرها في اللغات الأخرى..

إن المصطلح هو أشبه ما يكون «بالكأس» الذي يشرب فيه الجميع - بصرف النظر عن لغاتهم وثقافاتهم - ومن ثم فلا حرج ولا مُشَاحَّة في استخدام الجميع لهذه المصطلحات.. لكن هذه «الكؤوس» - المصطلحات - تختلف باختلاف المضمون والمفهوم والمعنى الذي تحتويه، كما تختلف الكؤوس باختلاف الشراب الذي تحتويه.. فاستخدام المصطلحات أمر مشاع أمام الجميع.. لكن تحديد معاني هذه المصطلحات - عندما تختلف هذه المعاني باختلاف الثقافات - هو شرط لتمام الفهم في أية حوارات جادة بين المختلفين في الثقافات والعقائد والحضارات..

إن الوضع الأمثل لهذا العالم الذي نعيش فيه هو وضع «منتدى الحضارات» الذي يتعايش فيه أبناء الحضارات المتعددة والثقافات المتمايزة؛ حيث يتعارفون.. ويتفقون فيما هو مشترك إنساني عام من المعارف والعلوم، مع تمايزهم فيما هو من الخصوصيات الثقافية والفلسفية والدينية..

ولأنه لا سبيل إلى هذا التعارف – ومن ثم التعايش والتعاون – إلا بالحوار.. كان تحديد مفاهيم المصطلحات شرطًا ضروريًا لنجاح أي لون من ألوان الحوار – سياسيًا كان أو ثقافيًا أو دينيًا أو حضاريًا.

إن الاختلاف في المضامين والمفاهيم، مع الاتحاد في المصطلح – الوعاء – أثر شائع في العديد من المصطلحات التي يتداولها العرب والمسلمون، ويتداولها الغرب الحضاري، مع تغاير مضامينها في كل حضارة من هاتين الحضارتين – الإسلامية والغربية – الأمر الذي يُحدث الكثير من اللبس والخلط في حياتنا الثقافية والسياسية والإعلامية المعاصرة، التي خلطت فيها وسائل الاتصال مصطلحات كثيرة، اتحدت في اللفظ مع اختلافها في المضامين والمفاهيم، الأمر الذي يستوجب تحديد مفاهيم هذه المصطلحات لدى الفرقاء المتحاورين، وإلا كان حوارهم أشبه ما يكون بحوار الطرشان!

وعلى سبيل المثال:

فمصطلح « اليسار » يرمز في الفكر الغربي، للأُجراء والفقراء وأهل الفاقة والحاجة، بينما يدل – ذات المصطلح – في المفاهيم العربية الإسلامية، على أهل الغنى واليُسر والنعيم!

ومصطلح « اليمين » يدل في الفكر الغربي، على أهل التخلف والرجعية والجمود.. بينما هو يعني، في الفكر العربي الإسلامي، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأقبلوا على

الله ﷻ يوم الحساب، يتناولون صحائف كتاب أعمالهم الطيبة باليمين، أي بالقوة والثبات والاطمئنان!

ولذلك، كان الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ / ١٨٨٩ - ١٩٤٠م) رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، يدعو الله ﷻ فيقول: « اللّهم اجعلني في الدنيا من أهل اليسار، واجعلني في الآخرة من أهل اليمين »، بالمفهوم الإسلامي لمصطلحي اليسار واليمين، وليس بمفهوم الغربيين لهذه المصطلحات..

ولما كانت الظاهرة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، تثير العديد من ردود الأفعال.. والمتناقض من المواقف والاستجابات.. الأمر الذي استدعى ويستدعي إدارة العديد من الحوارات حول هذه الظاهرة.. كان الضبط والتحديد لمعاني كثير من المصطلحات المستخدمة في هذه الحوارات شرطًا ضروريًّا لتحقيق الفهم المشترك للقائمين بهذه الحوارات.. ومن ثم تحقيق النجاح المطلوب من وراء هذه الحوارات..

ولتحقيق هذا المقصد وهذه الغاية اختارت هذه الدراسة تحديد المضامين والمفاهيم لعشرة من أشهر المصطلحات التي يشيع استخدامها في الحوارات الدائرة حول الظاهرة الإسلامية المعاصرة.. مصطلحات:

١ - الأصولية ٢ - السلف ٣ - السلفية

٤ - السلفيون ٥ - التطرف ٦ - الغلو

٧- الجاهلية ٨- التكفير ٩- الإرهاب

١٠- الاستحلال

لعل هذه الدراسة أن تكون إسهامًا في خدمة الفهم المشترك لأطراف هذه الحوارات، والله نسأل أن ينفع بها.. إنه ﷻ خير مسؤول.. وأكرم مجيب

القاهرة: رجب سنة ١٤٢٩ هـ يوليو سنة ٢٠٠٨م د. محمد عمارة

***

الأُصُولِيَّةُ
بَيْنَ الغَرْبِ والإسْلَامِ

« الأصولية » Fundamentalism بالمعنى الذي شاع مضمونه في أوساطنا الإعلامية والثقافية والسياسية المعاصرة – هو مصطلح غربي النشأة، غربي المضمون.. ولأصله العربي ومعانيه الإسلامية، مضامين ومفاهيم أخرى مغايرة لمضامينه الغربية، التي يقصد إليها الآن متداولوه.

والأصولية، في المحيط الغربي، هي في الأصل والأساس، حركة بروتستانتية التوجه، أمريكية النشأة، انطلقت في القرن التاسع عشر الميلادي، من صفوف حركة أوسع، هي « الحركة الألفية » التي كانت تؤمن بالعودة المادية والجسدية للمسيح ﷺ ثانية إلى هذا العالم؛ ليحكمه ألف عام تسبق يوم الدينونة والحساب.

والموقف الفكري الذي ميز ويميز هذه الأصولية، هو: « التفسير الحرفي للإنجيل وكل النصوص الدينية الموروثة، والرفض الكامل لأي لون من ألوان التأويل لأي نص من هذه النصوص – حتى ولو كانت، كما هو حال الكثير منها، مجازات روحية ورموزًا صوفية – ومعاداة الدراسات النقدية التي كتبت للإنجيل والكتاب المقدس » ... وانطلاقًا من التفسير الحرفي

للإنجيل، قال الأصوليون البروتستانت بالعودة الجسدية للمسيح، ليحكم العالم ألف عام سعيدة؛ لأنهم فسروا « رؤيا يوحنا » [سفر الرؤيا ٢٠ – ١ – ١٠] تفسيرًا حرفيًّا.

وعندما أصبحت الأصولية مذهبًا مستقلًّا بذاته، في بداية القرن العشرين. تبلورت لها – عبر مؤتمراتها، ومن خلال مؤسساتها وكتابات قساوستها – مقولات تنطلق من التفسير الحرفي للإنجيل، داعية إلى مخاصمة الواقع، ورفض التطور، ومعاداة المجتمعات العلمانية، بخيرها وشرها على السواء.. فهم – مثلًا – يدعون التلقي المباشر عن الله، ويتوجهون إلى العزلة عن الحياة الاجتماعية، ويرفضون التفاعل مع الواقع؛ ويعادون العقل والتفكير العلمي، والمبتكرات العلمية، فيهجرون الجامعات، ويقيمون لتعليمهم مؤسسات خاصة. وهم يرفضون إيجابيات الحياة العلمانية، ومن باب أولى سلبياتها، من الإجهاض وتحديد النسل إلى الشذوذ الجنسي والدعوات المدافعة عن « حقوق » أهله، ومن المسكرات والتدخين والرقص إلى الاشتراكية.

ولقد شهدت الحركة الأصولية، في العقود الأولى من القرن العشرين، عددًا من المؤتمرات التي أفضت إلى عدد من المنظمات، كان من أبرزها – في أمريكا –: « جمعية الكتاب المقدس » سنة (١٩٠٢م).. وهي التي أصدرت اثنتي عشرة نشرة بعنوان: « الأصول » Fundamentals دفاعًا عن التفسير الحرفي للإنجيل،

وهجومًا على نقده أو تأويله.. و« المؤسسة العالمية للأصوليين المسيحيين » سنة (١٩١٩م).. و« الاتحاد الوطني للأصوليين ».

تلك هي « الأصولية » في الاصطلاح الغربي، وبالمفهوم النصراني[1]..

أما في المنظار العربي والمفهوم الإسلامي، فإننا لا نجد في معاجمنا القديمة – لغوية كانت أو كشافات للمصطلحات – ذكرًا لهذه النسبة – « الأصولية » وإنما نجد الجذر اللغوي – « الأصل » بمعنى: أسفل الشيء، والحَسَب. وجمعه: أصول، وفي القرآن الكريم: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥] ورجل أصيل: له أصل، ومتمكن في أصله، وثابت الرأي عاقل، ورأي أصيل: له أصل، ومجد أصيل: أي ذو أصالة، والأصل – كذلك – القرار: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٤]، والجذر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، والأصلي: يقابل الفرعي، أو الزائد، أو الاحتياطي، أو المُقلَّد.

ويطلق الأصل على القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات، وعلى الحالة القديمة، كما في قول علماء أصول الفقه: الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة. والأصول: المبادئ المُسلَّمة.

---

(١) انظر: دائرة المعارف البريطانية، مصطلح Fundamentalism.

عند علماء « الأصول » يطلق الأصل على معان: أحدها: الدليل، يقال: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة. وثانيها: القاعدة الكلية. وثالثها: الراجح، أي: الأولى والأحرى[1].

ولقد تبلورت في الحضارة الإسلامية علوم « أصول الدين »، وهو علم الكلام – التوحيد – الفقه الأكبر، و « أصول الفقه » وهو العلم بالقواعد والبحوث التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، و « أصول الحديث »، ويقصد بها مصطلح الحديث.

وهكذا خلا ويخلو تراث الإسلام وحضارته، وتخلو معاجم العربية وقواميسها من مصطلح « الأصولية »، ومن المضامين التي عرفها الغرب لهذا المصطلح.

وحتى في فكرنا الإسلامي المعاصر، الذي استخدم بعض علمائه مصطلح « الأصولية » في مباحث علم أصول الفقه، وجدناه يعني: « القواعد الأصولية التشريعية، التي استمدها علماء أصول الفقه من النصوص التي قررت مبادئ تشريعية عامة، وأصولاً تشريعية كلية؛ مثل:

---

(1) انظر – على سبيل المثال – ابن منظور: [لسان العرب] طبعة دار المعارف القاهرة، والتهانوي: [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة الهند سنة (١٨٩١م). وأبو البقاء [الكليات] تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، طبعة دمشق، سنة (١٩٨٢م)، و [المعجم الكبير] وضع مجمع اللغة العربية، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م). [معجم ألفاظ القرآن الكريم] وضع مجمع اللغة العربية، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

١- المقصد العام من التشريع.

٢- وما هو حق الله وما هو حق المكلف؟

٣- وما يسوغ الاجتهاد فيه.

٣- ونسخ الحكم.

٤- والتعارض والترجيح.. »[1].

ولا علاقة لأيٍّ منها بمضامين مصطلح « الأصولية » في الحضارة الغربية وفكرها النصراني.

لكن، وبصرف النظر عن التسمية، هل في تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه – القديم منها والحديث – تيار أو مذهب وقف من النصوص المقدسة موقف الأصوليين الغربيين، فقال بالتفسير الحرفي للقرآن والسنة، ورفض كل ألوان المجاز والتأويل لأي نصٍّ مهما بدا تعارض ظاهره مع براهين العقل، حتى يمكن أن يقال: إن موقف هذا التيار أو المذهب، إزاء النصوص الإسلامية المقدسة هو ذات موقف ذلك التيار الأصولي النصراني من الإنجيل والكتاب المقدس، الأمر الذي يبرر القول بوجود « أصولية إسلامية » بهذا المعنى « الغربي – السلبي » لمصطلح « الأصولية »؟

(١) عبد الوهاب خلاف: [علم أصول الفقه] (ص ٢١٠ – ٢٣٢)، طبعة الكويت، سنة (١٩٧٢م).

إن حقيقة الجواب عن هذا السؤال هي النفي القاطع والأكيد.. فكل تيارات الفكر الإسلامي القديمة – سواء القلة من « أهل الأثر » و « أصحاب الحديث » و « الظاهرية ».. أو الكثرة الغالبة من « أهل الرأي » قد قبلوا بالمجاز و « التأويل » لطائفة كبيرة من النصوص المقدسة.. ويكاد الإجماع أن ينعقد على أن ما لا يقبل التأويل من النصوص، وهو الذي يسمى في الاصطلاح الأصولي « نصًّا » هو القلة، بينما الكثرة في النصوص هي مما فيها للرأي والتأويل والاجتهاد مجال.. ولقد كان التمايز والاختلاف بين هذه التيارات الفكرية الإسلامية، هي في الاقتصاد في التأويل، أو التوسط إزاءه، أو التوغل فيه، ولم يرفضه بإطلاق، مذهب من مذاهب الإسلام.

وإذا كان « التأويل » – في تعريف ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ – ١١٩٨م) – « هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخلَّ ذلك بعادة لسان العرب في التَّجوُّز، من تسمية الشيء بشبيهه، أو بسببه، أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي »[1].. فإن حجة الإسلام الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ – ١١١١م)، قد مدَّ آفاق التأويل المقبول إلى خمس مراتب لوجود الشيء الذي جاء به النص،

(١) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] (ص٣٢)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٣م).

تدخل هذه المراتب التأويلية بصاحبها إلى نطاق التصديق والإيمان، وتدفع عنه تهمة التكذيب والزندقة.

وهذه المراتب هي:

١ - الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي، الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يأخذ الحس عنه صورة، فيسمى أخذه إدراكًا..

٢- والوجود الحسي: الذي يتمثل في القوة الباصرة من العين، مما لا وجود له خارج العين، فيكون موجودًا في الحس، ويختص به الحاس، ولا يشاركه غيره، وذلك كما يشاهد النائم، بل كما يشاهد المريض المتيقظ.

٣- والوجود الخيالي: الذي يخترعه الخيال لصور المحسوسات إذا غابت عن الحس، فهو موجود في الدماغ لا في الخارج.

٤- والوجود العقلي: فيما له روح وحقيقة ومعنى.. كاليد - مثلًا - فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها، وهي القدرة على البطش - التي هي « اليد العقلية ».

٥ - والوجود الشبهي: وهو ألا يكون نفس الشيء موجودًا، لا بصورته ولا بحقيقته، لا في الخارج ولا في الحس، ولا في الخيال، ولا في العقل، ولكن يكون الموجود شيئًا آخر يشبهه في خاصة من خواصه، وصفة من صفاته.

فكل من نزل قولًا من أقوال النبوة، ونصًا من النصوص المقدسة، على درجة من هذه الدرجات، فهو من المصدقين؛ لأن

التكذيب هو نفي جميع هذه المعاني الواردة في هذه المراتب، والادعاء بأن ما أخبرت به النصوص هو كذب محض وتلبيس، وذلك هو الكفر والزندقة، « ولا يلزم كفر المتأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل ».

ثم يؤكد حجة الإسلام الغزالي أن كل مذاهب الإسلام قد لجأت إلى التأويل، « فما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إلى التأويل »[1].

فليس إذًا بين مذاهب الإسلام القديمة من وقف تمامًا ودائمًا عند حرفية النصوص، رافضًا أي تأويل، حتى يمكن إطلاق مصطلح « الأصولية » بالمفهوم الغربي عليه.

ولأن « معاصرتنا – الإسلامية » قد تميزت تميز « أصالتنا – الإسلامية »، فلقد خلت تيارات فكرنا الإسلامي- الحديث والمعاصر- من تيار يماثل – في الموقف من المجاز والتأويل والتفسير الحرفي للنصوص – « أصولية » الغرب النصرانية.

فالإمام محمد عبده (١٢٦٥ – ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ – ١٩٠٥م) يجعل « تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض » أصلًا من أصول الإسلام.. ويقول: « لقد اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلًا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما دل عليه العقل.

---

(١) [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] (ص ٤ – ١٠). طبعة القاهرة سنة (١٩٠٧م).

وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه؛ والطريق الثانية: تأويله، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، مُهِّدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حدّ.. »[1].

وهذا مذهب أبعد ما يكون عن « الأصولية » بالمعنى الغربي لمصطلحها.

وإذا كان الإعلام الغربي – وتبعًا له كثير من وسائل الإعلام العربي والإسلامي – قد خلط الأوراق، وأخذ يطلق على اليقظة الإسلامية المعاصرة مصطلح « الأصولية » بمعناه الغربي،

فإن بعض الكتاب الغربيين، الذين أطلقوا مصطلح « الأصولية » على الصحوة الإسلامية المعاصرة، تراهم – وهم يتحدثون عن علاقة هذه الصحوة بـ « الماضي » الإسلامي – يجعلون موقفها هذا من « الماضي » والتراث، على العكس من موقف الأصوليين الغربيين من ماضيهم وتراثهم النصراني.

فعلى حين تنسحب « الأصولية » بمعناها الغربي، إلى الماضي – مخاصمة الحاضر والمستقبل – نجد الصحوة الإسلامية المعاصرة –

---

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] (٣ / ٣٠١، ٣٠٢)، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٣ م).

بشهادة هؤلاء الكتاب الغربيين - تتخذ من العلاقة بالماضي ومن النظر إليه ومن علاقته بالمستقبل موقفًا مختلفًا.

فهي تريد « بعث الماضي » لا على النحو الذي تفعله التيارات الجامدة و « المحافظة »، وإنما بعثًا ينظر إلى هذا الماضي، ليتخذ منه « هداية للمستقبل » الأمر الذي يجعل أهل هذه الصحوة - بنظر هؤلاء الكتاب - « ثوارًا، وليسوا محافظين »!..

ومن أصحاب هذه الرؤية وهذا التقييم للصحوة الإسلامية المعاصرة، الرئيس الأمريكي الأسبق « ريتشارد نيكسون » (١٩١٣ - ١٩٩٤م)، الذي يقول عنها في كتابه [الفرصة السانحة Seize the moment]: « إنهم هم الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب، وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة، وبالرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين ولكنهم ثوار.. »[1]!.

بل إن عددًا كبيرًا من المستشرقين المعارضين - وبخاصة الخبراء منهم في الفكر الإسلامي، والأكثر التزامًا بمعايير « الفكر » المتميزة عن « لغة الإعلام » يرفضون صراحة إطلاق مصطلح « الأصولية » على ظاهرة الإحياء الإسلامي واليقظة

(١) نيكسون: [الفرصة السانحة] (ص١٤٠، ١٤١). ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٢م).

الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. وبلسان هؤلاء، يقول المستشرق الفرنسي الأشهر « جاك بيرك » (١٩١٠ – ١٩٩٥م): « أنا أرفض تعبير الأصولية؛ لأنه آتٍ من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، هناك مسلمون (العامة)، وهناك الإسلاميون، الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشكلات الحياة اليومية، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات. وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط، هذه أطروحة من نسميهم الإسلاميين، إنها حركات تسعى إلى تقريب العالم العربي من منابعه.. ولديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض، لكنهم يلتقون في الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول، وبخاصة القرآن، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادرًا على تقديم الحلول للمشكلات التي يطرحها العالم المعاصر. يطرحون ذلك في مواجهة المجتمعات التي وضعت نفسها منذ مائة سنة في مدرسة الغرب، ولم تحقق النجاحات المطلوبة.. ».

ومع « جاك بيرك » في رفض إطلاق مصطلح « الأصولية » – ذي المضامين الغربية السلبية – على « الظاهرة الإسلامية » المعاصرة، يقف العديد من كبار المستشرقين.. منهم المستشرق الأمريكي « روجر أوين » والمستشرقة الإسبانية « كارمن رويث » والمستشرق الروسي « فيتالي ناعومكين »، والمستشرقان الإنجليزيان « هومي بابا » – و « روبن أوستل » إلخ.. إلخ..[1].

---

(١) انظر ملف مجلة [الوسط] اللندنية – عن رأي الاستشراق في الحركات الإسلامية – الأعداد من ٩٦ حتى ١٠٢ الصادرة من ٢٩/ ١١، سنة ١٩٩٣م.

لكن كُتَّاب « اليمين الديني » - المسيحيين - الصهاينة - و « المحافظين الجدد » في أمريكا - الذين سخروا أفكارهم وأقلامهم لتبرير الهجمة الأمريكية على الإسلام والعالم الإسلامي - الهجمة التي أعلنتها - بعبارة الرئيس جورج بوش - حربًا صليبية.. والتي وصف فيها الإسلام بالفاشية، هؤلاء الكتاب قد أصروا على إطلاق مصطلح « الأصولية » - بمعناه الغربي - على الحركات الإسلامية المعاصرة، لا لشيء إلا لرفضها « التغريب » والتقليد للنموذج الغربي في التقدم.. نموذج « الحداثة الغربية » والاستهلاكية، ونمط الحياة الأمريكية.. معتبرين أن رفض هذه الحركات الإسلامية هذه « الحداثة الغربية » ودعوتها - بدلًا من ذلك - إلى الأصالة الإسلامية، والاستقلال الحضاري، هو « الأصولية » بالمعنى السلبي والرديء.. وفي هذا المقام كتب الصحفي الأمريكي الصهيوني « توماس فريدمان » - إبان الغزو الأمريكي لأفغانستان سنة (٢٠٠١م) - يقول: « إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس؛ ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية ضد ابن لادن بسرعة ونخرج.. وعندما نعود [من أفغانستان]، يجب أن نكون مسلحين بالكتب، لا بالدبابات، وفقط عندما تنمو تربة جديدة،

ضحى ١٠/ ١٠، سنة ١٩٩٤م، وانظر كتابنا [الصحوة الإسلامية في عيون غربية] طبعة القاهرة، نهضة مصر، سنة (١٩٩٧م).

وجيل جديد، يقبل سياساتنا، كما يحب شطائرنا، سيكون لنا في المنطقة الإسلامية أصدقاء»[1]!

ويكتب المفكر الإستراتيجي الأمريكي «فوكوياما» يقول: «إن العالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولد – تكرارًا – خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة.. العلمانية نفسها.. وإنه بينما نجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي السابق وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون في ذلك دليلًا على الانحلال الغربي.. وأن الصراع الحالي ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية – الفاشية الإسلامية – التي تقف ضد الحداثة الغربية.. وأن التحدي الذي يواجه الولايات المتحدة الأمريكية اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية الذي يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا أيديولوجيًا، هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية... وعلى المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا

---

(1) [نيويورك تايمز] الأمريكية – والنقل عن صحيفة [وطني] المسيحية المصرية في ٢٥-١١-٢٠٠١م.

كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة الغربية، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية؟»[1].

كما يعلن المفكر الإستراتيجي الأمريكي «صموئيل هنتنجتون» عن ذات الأهداف - أهداف «اليمين الديني» و«المحافظين الجدد» - فيقول: «إننا نريد حربًا داخل الإسلام حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»[2].

فهم يطلقون مصطلح «الأصولية» - بمعناه السلبي الغربي - على الحركات الإسلامية، لا لأنها - مثل الحركات الأصولية المسيحية الغربية - تقف موقفًا جامدًا ورجعيًا ولا عقلانيًا.. وإنما يريدون تشويه صورة هذه الحركات الإسلامية؛ لأنها رافضة للحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي في فصل الدين عن الدولة.. والاستهلاكية الغربية..

بل لقد رأينا الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» (١٩١٣ - ١٩٩٤م) يعلن - في صراحة تحمد له - أن الأصوليين المسلمين هم:

١ - الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب.

---

(١) [نيوزويك] الأمريكية - العدد السنوي - ديسمبر سنة ٢٠٠١م، فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٢) المرجع السابق.

٢- وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي.

٣- ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

٤- وينادون بأن الإسلام دين ودولة.

٥- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار..»[١].

هكذا كشف هذا الفكر الإستراتيجي عن المعنى الحقيقي للأصولية الإسلامية والأصوليين الإسلاميين.. باعتبارهم دعاة البعث الحضاري الإسلامي، والثوار المجاهدين في سبيل النهضة الإسلامية المتميزة عن نموذج الحداثة الغربية.

فأين هذه «الأصولية الإسلامية» من الأصولية الغربية، التي عرفها قاموس «لاروس الكبير» سنة (١٩٨٤م) بأنها: «موقف جمود وتصلب، معارض لكل نمو أو لكل تطور.. مذهب محافظ متصلب في موضوع المعتقد السياسي»؟!

هكذا وجدنا - ونجد - اختلافًا بينًا، قد يبلغ حد التضاد، بين مفهوم ومضمون مصطلح «الأصولية» كما عرفته النصرانية الغربية والحضارة الغربية، وبين مفهوم المصطلح في تراثنا الإسلامي، ولدى تياراتنا الفكرية، القديم منها والحديث والمعاصر على حد سواء.

---

(١) نيكسون: [الفرصة السانحة] (ص١٤٠، ١٤١) ترجمة: أحمد صدقي مراد - طبعة القاهرة سنة (١٩٩٢م).

فالأصوليون في الغرب: هم أهل الجمود والتقليد، الذين يخاصمون العقل والمجاز والتأويل والقياس، وينسحبون من العصر، فيقفون عند التفسير الحرفي للنصوص..

بينما الأصوليون في الحضارة الإسلامية: هم علماء أصول الفقه - الذين يمثلون قطاعًا من أبرز قطاعات إسهام المسلمين في الدراسات العقلية - أي هم أهل الاستنباط والاستدلال والاجتهاد والتجديد..

الأمر الذي يجعل من هذا المصطلح - « الأصولية » - نموذجًا من نماذج الخلط الفكري الناشئ من عدم التمييز بين المفاهيم المختلفة - وأحيانًا المتضادة - التي تضعها الحضارات المختلفة في وعاء المصطلح الواحد المتداول بين أبناء هذه الحضارات.

إن « المسلم » : هو كل من يؤمن بالإسلام، من عامة الأمة وجمهورها..

و « الإسلامي »: هو من له « مشروع » للتغيير والتجديد والنهوض، مرجعيته الإسلام[1].. وبعبارة « جاك بيرك »:

(١) واستخدام مصطلح « الإسلامي.. والإسلاميين » بهذا المعنى، قديم في التراث الإسلامي، فلأبي القاسم البلخي (٣١٩هـ/ ٩٣١م) كتاب [مقالات الإسلاميين]، ولأبي الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ - ٩٣٦م) كتابه الشهير بنفس العنوان - [مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين] -

« هناك مسلمون (العامة)، وهناك الإسلاميون، الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشكلات الحياة اليومية، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات.. ».

أما مصطلح « الأصولية »، بمعناه الغربي، فهو غريب عن الواقع الإسلامي، مقحم عليه بقوة « القصف الإعلامي »؛ لأنه يعني في الغرب: « أهل الجمود » بينما هو في التراث الإسلامي عنوان على: « أهل التجديد والاجتهاد والاستدلال، والاستنباط »!

* * *

= والمذاهب والمشروعات الفكرية عن « الإسلاميين » الذين هم أخص من جمهور المسلمين وعامتهم.

ٱلسَّلَفُ وَٱلسَّلَفِيَّةُ وَٱلسَّلَفِيُّونَ

ٱلسَّلَفُ

السلف – لغة –: هو الماضي، وكل ما ومن تقدم ومضى عن الواقع والزمن الذي يعيش فيه الإنسان.

وفي الاصطلاح: هو العصر الذهبي الذي يمثل نقاء الفهم والتطبيق للمرجعية الفكرية والدينية. قبل ظهور المذاهب والتصورات التي وفدت على الحياة الفكرية، بعد الفتوحات التي أدخلت الفلسفات غير الإسلامية على فهم السلف الصالح للإسلام..

والسلف – أيضًا –: هو كل عمل صالح قدمه الإنسان.

وفي القرآن الكريم يرد مصطلح السلف بمعنى: الماضي، وما سبق الحياة الحاضرة التي يحياها الإنسان: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس: ٣٠]، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦].

فالسلف في القرآن الكريم: هو الماضي، وما سبق وتقدم على الحياة الحاضرة للإنسان..

ونفس هذا المعنى – لمصطلح السلف – نجده في الحديث النبوي الشريف، ففي مسند الإمام أحمد، عن فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها في مرض موته: « ولا أراه إلا قد حضر أجلي، إنك أول أهل بيتي لحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك »[1]، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: لما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: « الحقي بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون »[2].

والسلف في اصطلاح المال والتجارة، هو: إقراض الأموال قرضًا حسنًا، أي لا منفعة فيه للمقرض – بالدنيا –.. وبهذا المعنى ورد في الحديث النبوي، فعن السائب بن أبي السائب أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة، فلما كان يوم الفتح جاءه، فقال النبي ﷺ: « مرحبًا بأخي وشريكي، كان لا يداري ولا يماري، يا سائب، قد كنت تعمل أعمالًا في الجاهلية لا تُقْبَل منك، وهي اليوم تُقْبَل منك، كان ذا سلف وصلة »[3]: أي كان يقرض المال قرضًا حسنًا، ويصل الأرحام.

ولما كان كل ماضٍ هو سلف، فلقد شاع إطلاق هذا المصطلح مُعَرَّفًا – السلف – على الجيل المؤسس، الذي أقام الدين، وطبق منهاج الإسلام، جيل الصحابة الذين عاشوا عصر تنزل الوحي، وامتلكوا سليقة فهم مصطلحاته على النحو

(١ – ٣) رواه الإمام أحمد.

الذي كانت عليه في عصر التنزيل، وتلقوا عن المعصوم ﷺ البيان النبوي للبلاغ القرآني، وحولوا جميع ذلك إلى واقع حياتي معيش.. فغدوا – لذلك – السلف الصالح، بتعميم وإطلاق.. ثم انضم إليهم – في زمرة السلف – من اهتدى بهديهم وعمل بسنتهم من التابعين وتابعي التابعين.

فالسلف هو: كل من يُقلَّد ويُقتدَى أثره في الدين..

وبعد « السلف » – الذين يشملون الصحابة.. والتابعين.. والأئمة العظام للمذاهب الكبرى، من تابعي التابعين – يأتي « الخَلَف »، الذين يلونهم في التسلسل الزمني.. وبعد الخَلَف تأتي أجيال « المتأخرين »[1]..

السَّلَفِيَّةُ

السلفية: نسبة إلى « السلف ».. والسلف هو: الماضي.. وفي القرآن الكريم: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾

---

(1) مراجع:

١- [عقائد السلف: للأئمة: أحمد بن حنبل، والبخاري وابن قتيبة، وعثمان الدارمي] جمعها ونشرها د. علي سامي النشار، ود. عمار الطالبي، طبعة دار السلام، سنة (٢٠٠٧م).

٢- أبو البقاء الكفوي: [الكليات] تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، طبعة دمشق، سنة (١٩٨٢م).

٣- د. محمد عمارة: [تيارات الفكر الإسلامي] طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٨م).

[البقرة: ٢٧٥]، وفي [لسان العرب] - لابن منظور -: « السالف: المتقدم »، أي الماضي..

ولذلك كانت السلفية الدينية، والسلفي في الدين: هي الرجوع في الأحكام الشرعية إلى منابع الإسلام الأولى، أي الكتاب والسنة، مع إهدار ما سواهما..

ومع وضوح هذا التعريف للسلفية، تعددت فصائل تيارها في تراثنا وفكرنا الإسلامي.. فكل السلفيين يعودون في فهم الدين إلى الكتاب والسنة، لكن منهم فصيلًا يقف في الفهم عند ظواهر النصوص.. ومنهم من يُعمل العقل في الفهم.. ومن الذين يُعملون العقل: مسرف في التأويل.. أو متوسط.. أو مقتصد..

ومن السلفيين: أهل جمود وتقليد.. ومنهم أهل التجديد، الذين يعودون إلى المنابع لاستلهامها في الاجتهاد لواقعهم الجديد، ومن السلفيين من سلفهم – ماضيهم – فكر عصر الازدهار الحضاري والخلق والإبداع.. ومنهم من سلفهم – ماضيهم ونماذجهم الذي يحتذونه – فكر عصر التراجع الحضاري والتقليد والجمود..

ومن السلفيين « مقلدون » لكل التراث، دونما تمييز بين « الفكر » وبين « التجارب ».. ودونما تمييز في « الفكر » بين « الثوابت » وبين « المتغيرات ».. ومنهم « مستلهمون » لثوابت التراث، مع « الاسترشاد » بتجارب ومتغيرات التاريخ..

ومن السلفيين من يعيشون في الماضي والسلف.. ومنهم من يوازن بين « السلف – الماضي » وبين « الحاضر – المعاصر »..

وهذا التنوع، الذي يقترب أحيانًا من درجة التناقض، في مناهج فصائل السلفية، هو الذي أحاط مضامين هذا المصطلح – وخاصة في فكرنا المعاصر – بكثير من الغموض، وسوء الفهم، بل وسوء الظن أيضًا! فكل إنسان هو سلفي، بمعنى أن له سلفًا وماضيًا ينتسب إليه ويرجع له، لكن التفاوت يأتي من الخلاف حول: من هو سلفك؟ وكيف تتعامل مع ماضيك؟ تهاجر إليه؟ أم تستدعيه؟ تقلده؟ أم تجتهد فيه؟

وأشهر المدارس الفكرية التي حاولت الاستئثار بمصطلح السلفية هي مدرسة «أهل الحديث»، التي هالها الوافد اليوناني – فلسفة ومنطقًا – وأفزعتها عقلانية اليونان المنفلتة من النقل الديني، فاعتصمت بالنصوص، مقدمة ظواهرها، بل وحتى ضعيفها على «الرأي» و«القياس» و«التأويل» وغيرها من ثمرات النظر العقلي.. وهي المدرسة التي انعقدت زعامتها للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ/ ٧٨٠ – ٨٥٥م)، حتى ليحسبها البعض كل السلفية، بينما هي في الحقيقة واحدة من فصائل هذا الاتجاه، وفي منهاج هذه المدرسة يعلو النص على غيره، بل ويكاد أن ينفرد بالحجية.

فالنص.. وفتوى الصحابة.. والمختار من فتوى الصحابة عند اختلافهم.. والحديث المرسل والضعيف.. ثم القياس للضرورة – هي الأصول الخمسة التي حددها الإمام أحمد ابن حنبل أركانًا لمنهج هذه المدرسة.. رافضًا بذلك الرأي، والقياس، والتأويل، والذوق، والعقل، والسببية في الفكر الديني..

وعن هذا المنهج النصوصي « للسلفية - النصوصية »، كما صاغه الإمام أحمد بن حنبل، يقول واحد من أعلامها هو الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠م):

الأصل الأول: النصوص؛ فإذا وجد النص أفتى به، ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه، كائنًا من كان.. ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملًا ولا رأيًا ولا قياسًا ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف.

الأصل الثاني: ما أفتى به الصحابة؛ فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى، لا يُعْرَفُ له مخالفٌ منهم فيها، لم يَعْدُها إلى غيرها.. ولم يقدم عليها عملًا ولا رأيًا ولا قياسًا..

الأصل الثالث: إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها، ولم يجزم بقول.

الأصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف؛ إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه، وهو الذي رجحه [أي الحديث الضعيف] على القياس..

الأصل الخامس: القياس للضرورة؛ فإذا لم يكن عنده في المسألة نص، ولا قول الصحابة، أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف، عدل إلى القياس، فاستعمله للضرورة...

هذا هو المنهج النصوصي لأشهر فصائل السلفية في تراثنا الفكري وواقعنا المعاصر.

وهناك سلفيون جمعوا ما بين السلفية والتجديد، حتى لقد وجدنا سلسلة المجددين عبر تاريخ الإسلام يجمعون بين السلفية في فهم الدين، وذلك عندما يعودون في فهم الدين إلى الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح لهذه المنابع الجوهرية والنقية، ثم يجددون في فهم الواقع ومستجداته، مع عقد القران بين فقه الأحكام وفقه الواقع.. فلا يقفون - فقط - عند ظواهر النصوص، وإنما يعملون فيها أدوات النظر العقلي.. وعن المنهاج التجديدي لهذه « السلفية - العقلانية » يعبر الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) عندما قال: « لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى تحرير العقل من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وإنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث في أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.. ».

ففي منهاج هذه السلفية العقلانية تآخى النص والعقل، وتزامل العلم والدين، وتآزرت السلفية والتجديد[1].

---

(١) مراجع:

١ - [عقائد السلف: للأئمة: أحمد بن حنبل والبخاري وابن قتيبة وعثمان الدارمي] تحقيق: د. علي سامي النشار، ود. عمار الطالبي، طبعة دار السلام سنة (٢٠٠٧م).

السَّلَفِيُّونَ

ومفردها: سَلَفِي، هم: الذين يحتذون حذو السلف، الذين سلفوا، أي سبقوا ومضوا.

وإذا استثنينا تيار «الحداثة» بالمعنى الغربي، والتي تقيم ويقيم أصحابها «قطيعة معرفية» مع الموروث، فإن أغلب تيارات الفكر ومذاهبه ومدارسه يمكن - بدرجات متفاوتة، ومعانٍ متمايزة - أن تدخل في إطار السلفيين؛ لأن لها ماضيًا ومرجعية ونموذجًا ترجع إليه وتنتسب له، وتحتذيه، وتستصحب ثوابته ومناهجه.. فليس هناك - في الحقيقة - صاحب فكر بلا ماضٍ، مهما كان في هذا الفكر من إبداع.. وإذا كان السلف هو الماضي، فكلنا سلفيون..

لكن السلفيين أنواع.. فمن السلفيين من «يقلد» السلف.. وهؤلاء هم أهل الجمود والتقليد.. ومن السلفيين من يرجع إلى السلف، فيجتهد في ميراثهم وتراثهم، مميزًا فيه «الثوابت» عن «المتغيرات»، والصالح للاستصحاب والاستلهام عن ما تجاوزته الوقائع المتغيرة، والعادات المتبدلة، والأعراف المختلفة، والمصالح المستجدة..

٢- ابن القيم: [إعلام الموقعين] طبعة بيروت، سنة (١٩٧٣م).

٣- [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٣م).

٤- د. محمد عمارة: [تيارات الفكر الإسلامي] طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٨م).

ومن السلفيين من يستلهم من فقه السلف ما يتطلبه فقه الواقع الجديد.. ومنهم من يهاجر من واقعه المعيش إلى واقع السلف الذي تجاوزه الزمان وإلى تجاربهم التي طوتها القرون.. ومن السلفيين من سلفه عصر الازدهار والإبداع في تاريخنا الحضاري.. ومنهم من سلفه عصر الركاكة والتراجع في مسيرتنا الحضارية.. ومن السلفيين من سلفه تراثنا وحضارتنا وثقافتنا الوطنية والقومية والإسلامية.. ومن السلفيين من سلفه تراث « الآخر » الحضاري ومذاهبه وتياراته الفلسفية والاجتماعية.

وبهذا المعنى يمكن إدخال « الليبراليين » الذين يحتذون حذو « الليبرالية » الغربية – والماركسيين – الذين يحتذون حذو الماركسية الغربية – وأمثالهم من المتغربين – في عداد السلفيين، الذين أصبح الموروث والماضي الغربي سلفًا لهم يحتذونه، أحيانًا مع قدر من التحوير، وأحيانًا بجمود وتقليد.

ومن السلفيين من سلفه المذاهب والتيارات « النصوصية – الحرفية » في تراثنا.. ومنهم من سلفه تيارات العقلانية في تراثنا.. أو النزعات الصوفية في موروثنا الحضاري.. ومن السلفيين من سلفه مذهب تراثي بعينه يتعصب له ولا يتعداه.. ومن السلفيين من مرجعيته تراث الأمة، على اختلاف مذاهبها، يحتضنها جميعًا، ويعتز بها، ويتخير منها.

لكن.. ومع صدق وصلاحية إدخال أغلب تيارات الفكر تحت مصطلح السلفيين، إلا أن هذا المصطلح قد ادعاه واشتهر به

وكاد يحتكره أولئك الذين غلَّبوا النص، وفي أحيان كثيرة ظاهر النص، على الرأي والقياس وغيرهما من سبل وآليات النظر العقلي، فوقفوا عند « الرواية » أكثر من وقوفهم عند « الدراية » وحرَّموا الاشتغال بـ « علم الكلام » فضلًا عن الفلسفات الوافدة على حضارة الإسلام.. وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم – أحيانًا –: « أهل الحديث »؛ لاشتغالهم بصناعة المأثور وعلوم الرواية، ورفضهم علوم النظر العقلي..

وإمام هذه المدرسة، هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ/ ٧٨٠ – ٨٥٥م)، وفيها نجد أبرز الأئمة الذين اشتغلوا بصناعة الرواية وعلومها، من مثل: ابن راهويه (٢٣٨هـ- ٨٥٢م) –إمام علم الجرح والتعديل– وأصحاب الصحاح والجوامع والمسانيد: البخاري (٢٥٦هـ ٨٧٠م)، وأبو داود (٢٧٥هـ ٨٨٨م)، والدارمي (٢٨٠هـ ٨٩٣م)، والطبراني (٣٦٠هـ ٩٧١م)، والبيهقي (٤٥٨هـ ١٠٦٦م).. إلخ.. إلخ..

ولقد تطورت هذه المدرسة – في مرحلة ابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ – ١٣٢٨م)، وابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ – ١٣٥٠م)، فضمت إلى المأثور بعضًا من أدوات النظر العقلي، وإن ظلت الغلبة والأولوية عندها للنصوص والمأثورات.

فالمنهاج النصوصي، لهؤلاء السلفيين، قد صاغه الإمام أحمد ابن حنبل – شعرًا – قال فيه:

دين النبي محمد آثار
نعم المطية للفتى الأخبار
لا تُخدعنَّ عن الحديث وأهله
فالرأي ليل والحديث نهار

وعبر عنه أحد أعلامهم – شعرًا أيضًا – فقال:

العلم: قال الله قال رسوله
قال الصحابة، ليس خُلْف فيه
ما العلم نَصْبُك للخلاف سفاهة
بين النصوص وبين رأي سفيه
كلا، ولا ردّ النصوص تعمدًا
حذرًا من التجسيم والتشبيه

وعن هذا المنهاج يعبر ابن القيم، فيقول: «ان النصوص محيطة بأحكام الحوادث، ولم يُحلْنا الله ولا رسوله على رأي ولا قياس.. وإن الشريعة لم تُحوجنا إلى قياس قط، وإن فيها غنية عن كل رأي وقياس وسياسة واستحسان، ولكن ذلك مشروط بفهم يؤتيه الله عبده فيها».

فلقد ظل النص وحده هو المرجع عند هؤلاء السلفيين..

لكن التطور قد أصاب هذا المنهاج النصوصي – في مرحلة ابن تيمية وابن القيم – فحدث إعمال الفهم والعقل في النصوص، دون الاكتفاء بالوقوف عند ظواهر هذه النصوص.

ولقد كان غلو هؤلاء السلفيين في الانحياز إلى « النص » وحده، ثمرة لعوامل كثيرة، منها: مخافة غلو مضاد انحاز أهله - وهم فلاسفة العقلانية اليونانية، من المشائين - إلى عقلانية غير مضبوطة بالنص الديني.. وأيضًا النزعة الصوفية الباطنية الإشراقية، التي انحازت إلى الذوق والحس، دونما ضابط من النص ولا من العقل.

ولأن هذه النزعات جميعها - النصوصية منها والعقلانية والباطنية - قد شابها قدر كثير أو قليل من الغلو، فلقد ظلت عاجزة عن استقطاب جمهور الأمة، وانحاز هذا الجمهور إلى النزعة الوسطية في السلفية، تلك التي جمعت بين « النقل » و « العقل » ووازنت بينهما، وهي « الأشعرية » التي أسسها إمامها أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل (٢٦٠ - ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ - ٩٣٦م)..

ففي هذه المدرسة - من مدارس السلفيين اجتمع النقل والمأثور مع النظر العقلي والاشتغال بعلم الكلام - الذي حرَّم السلفيون النصوصيون الاشتغال به - مع علم أصول الفقه - الذي يمثل فلسفة العقلانية الإسلامية في التشريع - ثم تطورت هذه المدرسة - بعد مرحلة التأسيس - على يد كوكبة من أئمتها، في مقدمتهم الباقلاني، أبو بكر محمد بن أبي الطيب (٤٠٣هـ ١٠١٣م) وإمام الحرمين الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (٤١٩ - ٤٧٨هـ/ ١٩٢٨ - ١٠٨٥م)، وحجة الإسلام، أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م)..

وعلى امتداد تاريخ الحضارة الإسلامية، ظلت هذه الصورة وهذه الموازنة ملحوظة في مدارس ومذاهب السلفيين.. فالنزعة النصوصية تمثلها في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥–١٢٠٦هـ/ ١٧٠٢–١٧٩٢م) – «الوهابية» – بينما لا تزال «الأشعرية» – الممثلة «للعقلانية – النصوصية» – تستقطب جمهور المسلمين[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) مراجع:

١– [عقائد السلف: للأئمة أحمد بن حنبل، والبخاري وابن قتيبة، وعثمان الدارمي]. جمعها ونشرها د. علي سامي النشار، ود. عمار الطالبي، طبعة دار السلام، سنة (٢٠٠٧م).

٢– ابن القيم: [إعلام الموقعين]. طبعة بيروت، سنة (١٩٧٣م).

٣– الأشعري: [مقالات الإسلاميين]. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة القاهرة سنة (١٩٦٩م).

٤– د. محمد عمارة: [تيارات الفكر الإسلامي]. طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٨م).

التطرف والغلو

التطرف: هو الذهاب إلى طرف الموقف أو الرأي، والبعد عن الوسط والوسطية والتوازن والاعتدال، سواء أكان ذلك التطرف في الفكر - الديني وغير الديني - أو في الفعل والسلوك.. وهذا التطرف هو الذي عبر عنه الفكر الإسلامي بمصطلح « الغلو ».. أي المغالاة، والبعد عن التوسط والاعتدال.

وهذا الغلو الديني - ككل ألوان الغلو - ومنها الغلو اللاديني - هو: تجاوز الحد، الذي هو الوسطية الإسلامية الجامعة لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والمتناقضة.. أقطاب غُلُوَّي الإفراط والتفريط..

ففي « العقلانية » - مثلاً - غلو إفراط، هو الذي يؤله العقل، وينكر أن يكون الوحي والنقل علمًا أو مصدرًا من مصادر العلم، ويرفع شعار التنوير الوضعي الغربي العلماني: « لا سلطان على العقل إلا العقل وحده » مؤلهًا العقل، وناقلاً لقدراته من « النسبي » إلى « المطلق »!

ويقابل غلو الإفراط هذا، ويناقضه غلو تفريط، يتنكر للنظر العقلي، ويفرط في الاحتكام إلى نعمة العقل التي أنعم الله بها على الإنسان، والتي هي جوهر الإنسان، ومعيار تميزه وامتيازه على غيره من المخلوقات.. ويكتفي أصحاب هذا الغلو بالوقوف

عند ظواهر النقل وحرفية النصوص، دون اعتبار لمقاصد هذه النصوص..

بينما حد الوسطية الإسلامية، في هذه العقلانية، هو الموازنة بين العقل والنقل، وجمع عناصر الحق والعدل منهما معًا، وذلك بالتأليف بين النقل الصحيح والعقل الصريح، على النحو الذي يكوّن منهاج النظر «بالعقلانية المؤمنة» التي تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل، نافية تناقض النقل والعقل؛ لأن نقيض العقل ليس النقل، وإنما هو الجنون!

وعن هذه الوسطية الجامعة، والرافضة لغلوي الإفراط والتفريط، في علاقة العقل بالنقل – الشرع – تحدث حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠–٥٠٥هـ / ١٠٥٨–١١١١م) فقال مصورًا تصويرًا نموذجيًا منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة، الرافض لغلوي الإفراط والتفريط في العقل، والجامع لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة، والأطراف المتناقضة.. قال الغزالي: «إن أهل السنة.. قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول، والحق المعقول؛ فمثال العقل: البصر السليم من الآفات والأذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور

القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور "[1].

وفي الممارسة والسلوك الديني، هناك غلو الإفراط، الذي يدير الظهر للدنيا وطيباتها، ويجعل التدين الإسلامي صورة من الرهبانية التي ابتدعها النصارى، دون أن تكتب عليهم، والتي تعذب الجسد طلبًا لخلاص الروح..

وهناك – على النقيض من هذا الغلو – غلو التفريط في الالتزام بالشعائر والروحانيات، وإطلاق العنان للغرائز الحيوانية، دونما تهذيب..

بينما حد الوسطية الإسلامية الجامعة في الممارسة والسلوك الديني، هو الجمع – في توازن واعتدال – بين الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، وعمران الأرض وتزكية النفس، والاستمتاع بالطيبات الدنيوية الحلال، على النحو الذي يجعل هذا الاستمتاع الآني سبيلًا للسعادة الأخروية التي هي خير وأبقى..

وإذا كان « الشح » غلو إفراط، يجعل صاحبه وكأنما قد حجر على نفسه الاستمتاع بطيبات ما وهبه الله.. فإن « الإسراف السفيه »، هو غلو تفريط يستوجب الحجر على صاحبه كي لا يبدد ما وهبه الله فيما لا يرضى عنه الله.. بينما حد « الكرم »، الذي يمثل الوسطية الجامعة « للعطاء » الذي غلا فيه المسرف،

---

(1) أبو حامد الغزالي: [الاقتصاد في الاعتقاد]، (ص٢، ٣) طبعة القاهرة- مكتبة صبيح – بدون تاريخ

و « التدبير » الذي غلا فيه الشحيح، هو الموقف الوسطي المحمود، الذي برئ من غلوي الإفراط والتفريط معًا..

وإذا كانت الوسطية الجامعة – التي هي خصيصة إسلامية – قد جعلت المنهاج الإسلامي شاملًا للدين والدولة، والفرد والأمة، والفرائض الفردية والفرائض الاجتماعية، والتشريع والتنفيذ، والمبادئ المرجعية والنظم والمؤسسات والآليات.. فإن مخاصمة « السياسة » وإهمالها، هو لون من غلو التفريط في الاهتمام بأمور الناس، وإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كما أن اختزال الإسلام في السياسة والسيف والتقفز على الدولة، هو لون من غلو الإفراط.. بينما حد الوسطية الجامعة هو الذي يجعل المنهاج الإسلامي شاملًا – في توازن يراعي الأوزان والأولويات – لكل مناحي الحياة وما بعد هذه الحياة: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. فالدين لله.. وأيضًا الوطن – الذي هو للجميع – هو والجميع لله ﷻ..

والغلو الديني – إفراطًا كان أو تفريطًا – ككل ألوان الغلو – قديم قدم الفكر الإنساني، والسلوك البشري الذي تحكمه وتوجهه الأفكار والمعتقدات والعادات.. ولقد ورد التعبير القرآني المباشر عن الغلو في حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ

أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٧١].

ومنذ صدر الإسلام، لم يخلُ المجتمع الإسلامي من الغلو والغلاة.. سواء أكان ذلك غلو إفراط أم غلو تفريط..

فالذين استقلوا أعمالهم الصالحة، فعزموا على صيام النهار أبدًا، وقيام الليل دائمًا، واعتزال النساء والزواج والإنجاب كلية، قد أرادوا الإسلام غلو الرهبانية المبتدعة، بينما هو الوسطية الجامعة والمتوازنة والعادلة..

وأهل الغلو في التصوف - الباطني.. غير الشرعي - قد فرطوا في الدنيا لحساب الآخرة، وفي الماديات لحساب الروحانيات، فاعتزلوا الدنيا والدولة والسياسة، وزهدوا في الطيبات المباحة، ناسين أن هذه هي الطريق القويمة إلى سعادة الآخرة..

بينما كان هناك الذين اختزلوا الإسلام في السيف والدولة والحكومة والسلطان - مثل الخوارج - فتنكبوا - رغم شرف المقاصد - منهاج الإسلام في التغيير، وهو الدعوة والتربية وصناعة الإنسان السوي، بإعادة صياغته صياغة إسلامية؛ ليثمر المجتمع الإسلامي السوي دولة الأسوياء، التي تحافظ على بقاء هذا المجتمع سويًّا.

ولقد جاء في الحديث الشريف - الذي هو البيان النبوي للبلاغ

القرآني – النهي عن كل ألوان الغلو في الدين – كل مناحي الدين – فقال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[1]، وكذلك النهي عن الغلو في التعامل مع القرآن الكريم، إفراطًا أو تفريطًا، فقال ﷺ: «اقرؤوا القرآن ولا تغلو فيه ولا تجفوا عنه»[2].

وإذا كان الخوارج قد ارتادوا – في التاريخ الإسلامي – ميدان «الغلو المنظم» – كفرقة – عندما جعلوا حاكمية الله ﷻ – التي هي قضاؤه التكويني والتشريعي – نافية لحاكمية البشر الحاكمين في الدولة والسياسة والاجتماع، فخرجوا بذلك عن حد الوسطية الإسلامية الجامعة بين سيادة الحاكمية الإلهية، المتمثلة في شريعته الإلهية؛ وبين سلطة حاكمية البشر – أمة ودولة – التي هي حاكمية الخلفاء المستخلفين لله ﷻ.. والتي قد تكون حاكمية بشرية «بارة» وقد تكون حاكمية بشرية «فاجرة»؛ لأنها لا تتمتع بالعصمة التي تتمتع بها شريعة الله، ولا الأنبياء المرسلون..

إذا كان الخوارج قد بدأوا أولى حلقات هذا «الغلو المنظم» – كفرقة – في الفكر الإسلامي، وفي وضع هذا الفكر المغالي في الممارسة والتطبيق – هبَّات.. وثورات.. ومعارك استنزفت

---

(1) رواه النسائي في كتاب الحج باب التقاط الحصى (٣٠٥٧) وابن ماجة في كتاب الحج باب قدر رمي الحصى (٣٠٢٩) والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٥).
(2) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٢٨).

قواصم وقوى الدولة الإسلامية لأكثر من قرن من الزمان – فإن الوسطية الإسلامية الجامعة لحاكمية الله، ولحاكمية البشر المستخلفين عن الله، قد كانت واعية وحاضرة في مواجهة هذا الغلو منذ اللحظة الأولى لولادته..

فمنذ التحكيم في الصراع بين الراشد الرابع علي بن أبي طالب (٢٣ق هـ – ٤٠هـ/ ٦٠٠ – ٦٦١م) كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق هـ – ٦٠ هـ/ ٦٠٣ – ٦٨٠م) ومن معه من أهل الشام – عقب معركة «صفين» (٣٧هـ ٦٥٧م).. وعندما هتف الخوارج – في معسكر علي – «لا حكم إلا لله» مكفرين الذين ارتضوا التحكيم – والحاكمية البشرية – في هذا النزاع السياسي.. كانت الوسطية الإسلامية الجامعة حاضرة، على لسان الإمام علي بن أبي طالب، الذي أجابهم: «إنها كلمة حق يراد بها باطل! نعم، إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله! وإنه لا بد للناس من أمير، برٍّ أو فاجر»[1]!

ومن «المفارقات» – التي تدخل في باب «الموافقات»! – أن شعار «الحاكمية» هذا، ومصطلحها، بمعناه «الخوارجي» الذي جنح أصحابه إلى جعل الحاكمية الإلهية نقيضًا نافيًا لأية حاكمية بشرية، والذي بدأت به مسيرة «الغلو المنظم» في التاريخ

(١) علي بن أبي طالب: [نهج البلاغة] (ص ٦٥) طبعة دار الشعب – القاهرة

الإسلامي، قد توارى – هذا الشعار – عن أدبيات الفكر الإسلامي مع طي التاريخ الإسلامي لصفحة الخوارج كثورة مسلحة مستمرة.. وظل هذا المصطلح والشعار متواريًا، حتى بعثه من مرقده العلامة المجاهد أبو الأعلى المودودي (١٣٢١ – ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ – ١٩٧٩م)، رغم ما بين المودودي والخوارج من خلاف واختلاف.. فكان أن بدأت مسيرة جماعات الغلو الإسلامي المعاصر تحت رايات شعار الحاكمية من جديد!

لقد بدأت هذه الجماعات من « بعض » – ونؤكد على كلمة « بعض » – عبارات المودودي، التي كتبها في واقع هندي وهندوكي له ملابسات سياسية وحضارية خاصة، كان المسلمون فيها ٢٥٪ من سكان الهند – قبل التقسيم – وكانت الحاكمية البشرية، في ذلك الواقع، إما سلطة الاستعمار الإنجليزي الكافر، أو السلطة الهندوكية الكافرة، وكلتاهما عازمة على سحق الهوية الإسلامية للمسلمين الهنود.. ولذلك، ولهذه الملابسات الهندية الخاصة، رفض المودودي – في بعض نصوصه – الحاكمية البشرية، التي رآها نقيضًا للحاكمية الإلهية!

ثم جاء الخطأ المزدوج لجماعات الغلو الإسلامي المعاصر، عندما نقلت هذا الشعار من الهند إلى الواقع العربي.. فكان خطأ مزدوجًا، تمثل في:

١ – تجريد عبارات المودودي عن الحاكمية من ملابساتها السياسية الخاصة التي أفرزتها، وتحويلها إلى « دين ثابت » صالح

للتطبيق في أي مكان، فبدأت هذه الجماعات توظيف عبارات المودودي هذه في واقع عربي يمثل المسلمون فيه ٩٦٪ من السكان، فتحول « الفكر السياسي » النسبي، والمرتبط بالواقع الذي يثمره ويحدد طبيعته وتطوره، إلى « دين ثابت » صالح لكل زمان ومكان..

٢ – أما الخطأ الثاني، الذي وقعت فيه جماعات الغلو الإسلامي المعاصر – عندما انطلقت من عبارات المودودي عن « الحاكمية » – فلقد تمثل في انتزاع النصوص الملتبسة والموهمة والمجتزأة من كتابات المودودي حول الحاكمية، وإهمال المنهاج العلمي في القراءة الكاملة للمشروع الفكري والسياسي للمودودي، تلك القراءة التي تضبط مفهوم المودودي لمعنى مصطلح الحاكمية.. والتي تنصف الرجل عندما تبرئه من المسؤولية عن فكر وسلوك جماعات الغلو هذه، التي ظلمته عندما زعمت أنها قد بدأت من عنده.. كما ظلمه أهل الغلو اللاديني عندما سلموا بنسبة جماعات الغلو هذه إلى هذا الداعية الإسلامي العظيم..

ولجلاء هذه الحقيقة.. وسلوكًا لمنهاج الدراسة النقدية الموضوعية التي تعطي كل ذي حقٍّ حقه، نبدأ مع أولى مقولات الغلو الإسلامي المعاصر.. مقولة « الحاكمية ».. متتبعين ثمراتها الفكرية، وخاصة:

– مقولة « جاهلية » حضارتنا الإسلامية ومجتمعاتنا ودولنا الإسلامية المعاصرة..

– ومقولة « كفر وتكفير » هذه المجتمعات المعاصرة ودولها وحكوماتها..

– بل والقول « بارتداد الأمة الإسلامية » عن الإسلام منذ قرون!

– وانتهاءً بالتفسيرات المغالية والخاطئة لفكرة « الفرقة الناجية »، التي جعلت وتجعل قلة من الغلاة يتصورون أنهم وحدهم هم « الفرقة الناجية »، وأن الأغلبية الساحقة من سواد الأمة وشعوبها – فضلاً عن حكوماتها – هالكون في نار الجحيم!

تلك المقولات التي جعلت هؤلاء الغلاة يفاصلون المجتمعات الإسلامية، ويحاولون الانفصال عنها – بالتكفير والهجرة حيناً – وبالعزلة الشعورية حيناً – وبالاستعلاء على سواد الأمة في كل الأحايين.. الأمر الذي جعل من هؤلاء الغلاة « خوارج » على الأمة والمجتمعات الإسلامية، فضلاً عن الدول والحكومات.. سواء أكان « خروجهم » مسلحًا أم غير مسلح.. وذلك على الرغم مما يحسبون ويعتقدون من بعد الشقة وشدة الخلاف بينهم وبين الخوارج القدماء!

***

الجَاهِلِيَّةُ والتَّكْفِيرُ

وإذا كانت بعض صياغات الأستاذ المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ - ١٩٧٩م) قد تعاملت مع مفهوم « الحاكمية » بشكل ملتبس وموهم.. فإن الرجل قد تعامل مع مصطلح « الجاهلية » تعاملًا يحتاج إلى نقد موضوعي وتصويب شجاع..

فالجاهلية - في المصطلح العربي والإسلامي - هي « زمن الفترة، ولا إسلام ».. أي الفترة بين رسولين ورسالتين وشريعتين، عندما لا يكون هناك دين صحيح سائد، وإنما يكون الشرك والوثنية محور الاعتقاد[1] والذين أطلقوا وصف الجاهلية على المجتمعات الإسلامية المعاصرة وحضارتها ودولها وحكوماتها، انطلاقًا من أن الجاهلية هي « حالة » وليست « فترة زمنية » - ومنهم المودودي والذين ساروا على دربه - قد جانبهم التوفيق عندما لم يميزوا بين وجود « شوائب جاهلية » في المجتمعات الإسلامية المعاصرة وبين « عموم الجاهلية » في هذه المجتمعات.. فعموم الجاهلية يعني انعدام الإسلام، وتحول الشرك والوثنية

---

(١) ابن منظور: [لسان العرب] طبعة دار المعارف، القاهرة، و [المعجم الوسيط]، مجمع اللغة العربية، طبعة القاهرة سنة (١٣٩٢هـ) ، سنة (١٩٧٢م) و [معجم ألفاظ القرآن الكريم]، مجمع اللغة العربية، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

إلى خور الاعتقاد في هذه المجتمعات.. وهو ما لا يقول به إلا الغلاة..

إن مجتمع النبوة على عهد رسول الله ﷺ لم يخل من « شوائب الجاهلية » ومع ذلك، فلا يمكن لعاقل أن يصفه بأنه مجتمع جاهلي.. ففي صحيح البخاري – من حديث جابر بن عبد الله – قال: كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: « ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة »[1].

فوجود دعوى الجاهلية المنتنة، وبروزها حتى على ألسنة بعض الصحابة لا يعني سيادة الجاهلية وعمومها.. ومثل ذلك، حديث أبي ذر الغفاري: « أنه سابَّ رجلاً، على عهد رسول الله ﷺ، فعيَّره بأمه.. فأتى الرجل النبي فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ: « إنك امرؤ فيك جاهلية »[2].. فوجود شيء من الجاهلية في الصحابي الجليل أبي ذر، لا يعني أنه جاهلي بحال من الأحوال! لكن المودودي قد انطلق من دعوى غيبة الحاكمية الإلهية عن المجتمعات الإسلامية والدول الإسلامية – فضلاً عن مجتمعات الحضارة الغربية – فذهب من هذا المنطلق إلى الحكم على كل

(1) رواه البخاري ومسلم وابن حبان في صحيحه

(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والإمام أحمد.

المجتمعات الإسلامية ودولها بالجاهلية – ومن ثم بالكفر – وذلك دون أن يكفر الأفراد أو الأمة..

بل وذهبت به المجازفة إلى الحكم بسيادة الجاهلية في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية منذ السنوات الأخيرة لخلافة الراشد الثالث عثمان بن عفان (٤٧ ق هـ – ٣٥هـ/ ٥٧٧ – ٦٥٦م)!

لقد كتب عن جاهلية الغرب، فقال عن عصرها: « إنه عصر الجاهلية المحضة.. الجديدة.. والمعاصرة.. والمتحضرة »[1].

وكتب عن ارتداد حضارتنا الإسلامية، وثقافة أمتنا الإسلامية، والنظام الاجتماعي الإسلامي إلى الجاهلية منذ عهد عثمان بن عفان، فقال: « إن الغايات التي حققها النبي ﷺ قد سار على نهجه فيها أبو بكر الصديق (٥٢ق هـ – ١٣هـ/ ٥٧٣ – ٦٣٤م)، وعمر الفاروق (٤٠ ق هـ – ٢٣ هـ/ ٥٨٤ – ٦٤٤م).. ثم انتقل الأمر بعدهما إلى سيدنا عثمان ﷺ، وبقي على ما أقامه عليه النبي إلى عدة من السنين في صدر ذلك العهد..

ولكن الخليفة الثالث كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيها العظيمان اللذان سبقاه.. فلقد كان ينقصه بعض تلك الصفات اللازمة للحكم والأمر، التي كانت على أتمها في

---

(١) المودودي: [الحكومة الإسلامية] (ص٥٥، ١١٣)، و[موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] (ص١٦)، ترجمة: محمد كاظم سباق، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٥م).

أبي بكر وعمر.. فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الاجتماعي الإسلامي، وإن تيارها الجارف، وإن حاول عثمان صده ببذل نفسه ومهجته، إلا أنه لم يتكفى، ثم خلفه علي (٢٣ق هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م) كرم الله وجهه، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة وصيانة السلطة السياسية في الإسلام من تمكن الجاهلية منها، ولكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتى ببذل نفسه، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة، وحلّ محلها الملك العضوض Tyrant kingdom، وبدأ الحكم والسلطة يقومان على قواعد الجاهلية بدلًا من قواعد الإسلام.. »[1].

ثم يمضي المودودي على درب هذه المجازفة، فيحكم بتأبيد الجاهلية وسيادة ضلالاتها وأباطيلها في الحياة الإسلامية والحضارة الإسلامية وثقافتها، بعد عهد عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠١هـ/ ٦٨١ - ٧٢٠م) فيقول: « لقد انتقلت أزمة السياسة والحكومة، بعد عمر بن عبد العزيز إلى أيدي الجاهلية إلى الأبد، فقامت سلطة بني أمية، فبني العباس، فالملوك الأتراك، والذي جاءت به هذه الحكومات من الأعمال والخدمات يتلخص في أنها استوردت فلسفات اليونان والروم والعجم وأشاعتها بين المسلمين على صورتها التي كانت عليها، وبجانب آخر

(١) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] (ص ٣٤ - ٣٧).

نشرت - بقوة الحكم وأموال الدولة - ضلالات الجاهلية الأولى وأباطيلها في جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع»[1].

ويمضي المودودي فيقول عن هذه الردة إلى الجاهلية: «فكان من الطبيعي أن يصحب ذلك كله رواج فلسفة الجاهلية وآدابها وفنونها، فتدون العلوم والمعارف على طرازها[2].. فالحضارة التي ازدهرت في قرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة لا دخل للإسلام فيها ولا صلة.. وتاريخها ليس إسلاميًّا، بل الأجدر أن يكتب في سجل الجرائم بمداد أسود..»[3]!!

ومن هذا الغلو المودودي - غير المبرر - انطلق الشهيد سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م) - في لحظات المحنة والتوتر، التي كتب فيها (معالم في الطريق) - فقال: «إنه يدخل في إطار المجتمع الجاهلي، تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة»..

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا، ولكنها تدخل في هذا الإطار؛ لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي - وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله -

---

(١) المصدر السابق (ص٦٣، ٦٤).

(٢) المصدر السابق (ص٣٩).

(٣) [الحكومة الإسلامية] (ص١٧١).

تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريبًا.. إن موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها »[1].

فإسلام هذه المجتمعات – عند سيد قطب – هو مجرد « زعم »؟! لأنها – وإن لم تعبد غير الله – قد دانت في كل مناحي حياتها لحاكمية غير الحاكمية الإلهية – في النظم والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد، وكل مقومات حياتها تقريبًا..!!

بل وتجاوز سيد قطب مجازفة المودودي، عندما لم يكتف – كالمودودي – بالحكم بجاهلية « المجتمعات » الإسلامية، و« دولها » و« تاريخها » و« ثقافتها » و« حضارتها ».. وإنما ذهب فأعلن « انقطاع الأمة الإسلامية عن الوجود منذ قرون »! وأن المهمة التي يدعو إليها، هي إيجاد الأمة والجماعة المسلمة من جديد!

ذهب سيد قطب – في المجازفة – إلى هذا المدى، فكتب يقول: « إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة.. فالأمة المسلمة ليست « أرضًا » كان يعيش فيها الإسلام، وليست « قومًا » كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي.. إنما « الأمة المسلمة » جماعة من البشر، تنبثق

---

(١) سيد قطب: [معالم في الطريق] ص ١٠١، ١٠٣. طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م).

حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي..

وهذه الأمة - بهذه المواصفات - قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا.. ولذلك فالمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحًا.. إن الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - هم يحيون حياة الجاهلية.. ليس هذا إسلامًا، وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد»[1]!!!

هكذا حكم سيد قطب - يرحمه الله - على «الأمة» - وليس فقط على «الدول والمجتمعات والحضارة» - بالكفر، والشرك، والجاهلية.. ونفى عن «الأمة» الإيمان، والتوحيد، والإسلام.. «فالناس» - نعم «الناس» - عنده ليسوا مسلمين كما يدعون! والمطلوب من الدعوة - التي حدد مناهجها في كتاب (معالم في الطريق) - هو رد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، وتجعل منهم مسلمين من جديد.

ولقد مضى ليؤكد هذا الحكم الخطير على «الأمة» فقال: «ينبغي أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم

(١) المرجع السابق (ص٨، ١٧٣).

أولا إلى اعتناق العقيدة – حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون! فإذا دخل في هذا الدين عصبة من الناس.. فهذه العصبة هي التي يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم »[1]!

فكل ما حولنا، وكل ما في العالم جاهلية.. بل جاهلية أظلم من الجاهلية التي عاصرها الإسلام.. وبعبارات سيد قطب: « إن العالم يعيش اليوم كله في « جاهلية »، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، جاهلية لا يخفف منها شيئًا التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق.. فنحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيرًا إسلاميًا.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية »[2].

وهذا المستوى من المجازفة في الغلو، غير مسبوق في تاريخ الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة على الإطلاق!

تلك هي المقولات التي استغلها الغلو الإسلامي المعاصر.. والتي جعلت فصيلًا من الشباب، يبالغ في استغلال مقوماتها

(١) سيد قطب: [معالم في الطريق] (ص٤٠).

(٢) المصدر السابق (ص١٠، ٢١).

هذه -- الحاكمية.. والجاهلية.. والتكفير -- حاملاً السلاح ضد حكام العصر.. من مثل الذين قالوا -- في كتاب (الفريضة الغائبة) --: « إن الدولة تحكم بأحكام الكفر، بالرغم من أن أغلب أهلها مسلمون.. والأحكام التي تعلو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر، بل هي قوانين وضعها كفار وسيَّروا عليها المسلمين.. بعد ذهاب الخلافة سنة (١٩٢٤م)، واقتلاع أحكام الإسلام كلها.. وحكام المسلمين لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وادّعوا أنهم مسلمون. وهدف جماعة الجهاد هو: إقامة الدولة الإسلامية، لإعادة الإسلام لهذه الأمة.. وسبيل ذلك هو السيف.. فالذي لا شك فيه هو أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف.. وآية السيف، التي خاطب الله فيها المسلمين فقال: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة: ٥]، قد نسخت -- برأي هؤلاء الشباب -- كل آيات « العفو » و« الصفح » و« الإعراض ».. والأولوية -- في الجهاد والقتال -- هي ضد هؤلاء الحكام الكفرة، وليس ضد الاستعمار، فالاستعمار هو « العدو البعيد »، بينما هؤلاء الحكام الكفرة هم « العدو القريب ».. فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية، وهي إقامة شرع الله في بلدنا، وجعل كلمة الله هي العليا.. فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجدٍ،

وميدان الجهاد الأول هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامي الكامل، ومن هنا تكون الانطلاقة»[1]!

لقد انطلق هذا الفصيل – فصيل العنف والغضب والاحتجاج – من تحت عباءة مقولات الغلو: الحاكمية.. والجاهلية.. والتكفير، معلنين:

– أن أحكام الإسلام قد اقتلعت كلها.

– وأن المجتمعات الإسلامية قد استبدلت قوانين الكفار بالأحكام الإسلامية.

– وأن حكام المسلمين اليوم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وادَّعوا أنهم مسلمون.

– وأن السيف هو السبيل لإزالة هذه الطواغيت.

هكذا تبلورت، وتتابعت مقولات الغلو الإسلامي وممارساته في واقعنا الإسلامي المعاصر.. لقد بدأت قصة هذه المقولات بمقولة:

١ – تناقض الحاكمية الإلهية مع أية حاكمية بشرية..

٢ – ولأن المجتمعات المعاصرة، بما فيها المجتمعات الإسلامية ودولها، قد احتكمت – بدرجات متفاوتة – إلى الحاكمية البشرية،

---

(١) محمد عبد السلام فرج: [الفريضة الغائبة] (ص ٣، ٧ – ٩، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٣٣) الكتاب مطبوع طبعة سرية خاصة. ولقد رجعنا إلى مصورة نسخته الأصلية في أوراق قضية اغتيال الرئيس محمد أنور السادات – أكتوبر سنة (١٩٨١م) – انظر كتابنا [الفريضة الغائبة: عرض وحوار وتقييم]، طبعة بيروت، الثانية، سنة (١٩٨٣م).

فلقد ارتدت هذه المجتمعات ودولها إلى جاهلية أشد وأظلم من الجاهلية الأولى، التي عاصرت ظهور الإسلام.

٣- ومن ثم، فلقد كَفَرَت هذه المجتمعات الجاهلية، حتى وإن ظلت تطلق على نفسها كلمتي « الإسلام » و « المسلمين »؛ لأن تصوراتها – فضلًا عن ثقافتها وحضارتها – لم تعد إسلامية.

٤- الأمر الذي يستوجب تجريد السيف – الذي زعموا أن آيته قد نَسَخَت كل آيات « الرحمة » و « العفو » و « الإعراض » و « الصفح » و « الصبر الجميل » – وذلك لإعادة الناس إلى الإسلام من جديد.

٥- وهكذا تحققت نبوءة افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها هالكة، إلا هؤلاء الذين انطلقوا من هذه المقولات، فإنهم وحدهم هم الناجون من النار!

تلك هي مقالات الغلاة في تكفير الأمة، والحكم على مجتمعاتها بالجاهلية.. وهي المقالات التي تراجع عنها أصحابها – والحمد لله – عندما كتبوا ونشروا « المراجعات » لأفكارهم في العقد الأخير من القرن العشرين..

ونحمد الله أن فكر جمهور الأمة الإسلامية، بتياراتها الفكرية العريضة، قد ظل – دائمًا وأبدًا – ملتزمًا بمنهج الوسطية والاعتدال، رافضًا وناقدًا لفكر الغلاة في « الجاهلية » و « التكفير ».. لقد ظل جمهور الأمة الإسلامية، وجمهور علماء الإسلام أوفياء للمنهاج الإسلامي الرافض لنزعة التكفير.. وذلك انطلاقًا من

القرآن الكريم.. والسنة النبوية الشريفة.. والفكر الوسطي الذي ساد مذاهب الأمة وتياراتها الفكرية على امتداد تاريخ الإسلام.

- لقد قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٩٤].

- ويقول الإمام القرطبي (٦٧١هـ، ١٢٧٣م) في تفسير هذه الآية الكريمة: « إن في هذا التوجيه الإلهي من الفقه بابًا عظيمًا، وهو أن الأحكام تُناط بالمظان والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر، فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر »[١].

- وعن أسامة بن زيد ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات (مكان) من جهينة، فأدركت رجلًا، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال: « أقال لا إله إلا الله، وقتلته »؟!

قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح.

قال ﷺ: « أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ »[٢].

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن] (٥/ ٣٣٩، ٣٤٠) طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد.

- وفي شرح هذا الحديث، يقول الإمام النووي (٦٣١، ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣، ١٢٧٧م): « إنما كُلِّفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه ».

- ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠، ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨، ١١١١م): « إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجهلة.. وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم »[1].

- ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦، ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩، ١٩٠٥م): « إن الله لم يجعل للخليفة.. ولا للقاضي.. ولا للمفتي .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه طريق نظره.

فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين، يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم..

---

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] (ص١٤٣) طبعة مكتبة صبيح، صحن الجامع الأزهر، القاهرة، بدون تاريخ.

وليس لمسلم – مهما علا كعبه في الإسلام – على آخر – مهما انحطت منزلته فيه – إلا حق النصيحة والإرشاد.

ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر..»[1].

هكذا أعلن الإسلام – من خلال «البلاغ القرآني».. و«البيان النبوي» للبلاغ القرآني.. ومن خلال الفكر الإسلامي – ضرورة صيانة الإيمان عن «التكفير العبثي» و«عبث التكفيريين»!!

وإذا كانت هذه نماذج من الغلو الديني – كما تجلى في نزعة «التكفير» والحكم على المجتمعات «بالجاهلية» المستلزمة «للتكفير» فإن هناك لونًا آخر للغلو الفكري هو الغلو اللاديني، الذي ذهب ويذهب إلى الطرف الآخر.. والنقيض..

– فإذا كان أهل الجمود والتقليد يقفون عند ظواهر النصوص وحرفيتها، رافضين أي لون من ألوان «التأويل» أو حتى مراعاة مقاصد النصوص.. فإن الغلو الوضعي اللاديني يذهب إلى التأويل العبثي وغير المنضبط لجميع النصوص. وذلك بدعوى «أنه لا يوجد نص لا يمكن تأويله»[2].

---

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] (3/ 283 – 289)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (1972م).

(2) د. حسن حنفي: [من العقيدة إلى الثورة]. (1/ 397، 398)، طبعة القاهرة، سنة (1988م).

- وإن كانت كل الديانات.. وكل الفلاسفة الإلهيين قد اجتمعوا - عبر تاريخ الإنسانية - على أن الله هو الذي خلق الإنسان.. فإن أصحاب هذا الغلو اللاديني يذهبون إلى أن الإنسان هو الذي خلق الله.. وذلك - بزعمهم - أن الإنسان المحبط العاجز الجاهل المستعبد قد خلق ذاتًا أضفى عليها الصفات التي حرم منها، ثم ألهها وعبدها.. فإذا ما تحرر هذا الإنسان من العجز والجهل والاستعباد والإحباط، فلا داعي لبقاء هذا الإله المخلوق!! بل لقد دعوا إلى إلغاء كلمة « الله » من اللغة، واستبدالها بكلمة « الإنسان الكامل »! وفي ذلك قالوا: « إن الله ليس له وجود ذاتي مفارق، وصفاته ليست صفات لذاته الواجبة الوجود - وجودًا مفارقًا للطبيعة والواقع والإنسان - وإنما هو - بزعمهم - اختراع الإنسان المحبط، عندما عجز عن تحقيق ذاته الحية، العالمة، القادرة، المريدة، السميعة، البصيرة، المتكلمة، الفعالة لما تريد، فاخترع هذا الإنسان ذاتًا أضفى عليها هذه الصفات التي عجز عن تحقيقها، بسبب الإحباط الذي يعيشه. فإذا ما نهض هذا الإنسان، فحقق ذاته، وتحلى بهذه الصفات، طويت هذه الصفحة من صفحات العلم الإلهي، وأصبحت عبارة « الإنسان الكامل » هي البديل والأدق في التعبير عن كلمة « الله »، التي تنتفي مبررات وجودها حتى في اللغة.

نعم.. لقد نقل أصحاب هذا الغلو اللاديني مقولات « التنوير الوضعي الغربي » إلى محيط الفكر الإسلامي.. فقالوا: « إن الله لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أي

أنه تعبير أدبي أكثر منه وصفًا لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفًا خبريًا؛ إنه لا يعبر عن معنى معين[1].

والله باعتباره هو الوجود الواحد، أو المجرد الصوري، أو العلة الغائية. كل هذه التصورات هي في حقيقة الأمر مقولات إنسانية تعبر عن أقصى خصائص الإنسان.. فالإنسان.. يخلق جزءًا من ذاته ويؤلهه؛ أي أنه يخلق المؤلَّه على صورته ومثاله، فهو يؤوّل أحلامه ورغباته، ثم يشخصها ويعبدها.. فالذات الإلهية هي الذات الإنسانية في أكمل صورها.. وأي دليل يكشف عن إثبات وجود الله إنما يكشف عن وعي مزيف »[2].

– ثم يذهب أصحاب هذا الغلو اللاديني إلى التأويل العبثي – غير المضبوط بضوابط اللغة ولا ثوابت الاعتقاد – فيلغون عقيدة « الوحي الإلهي » إلى الأنبياء والمرسلين.. وفي ذلك يقولون: « إن العقل ليس بحاجة إلى عون، وليس هناك ما يند عن العقل[3].. فالوحي لا يعطي الإنسانية شيئًا لا تستطيع أن تكتشفه بنفسها من داخلها »[4]، « وإن ما تصوره القدماء أنه من وحي الله، أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان »[5].

---

(1) د.حسن حنفي: [التراث والتجديد] (ص١٢٨) طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٠م).

(2) د.حسن حنفي: [من العقيدة إلى الثورة] (١/ ٨٨، ٨٩)، (٢/ ٦٣٩، ٤٦).

(3) المرجع السابق (٤/ ١٣٥، ٨٤٨).

(4) د.حسن حنفي: [تربية الجنس البشري]، المقدمة (ص١٥١) طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٧م).

(5) د.حسن حنفي: [مجلة قضايا إسلامية معاصرة] عدد ١٩ بيروت سنة (١٤٢٣هـ)، سنة (٢٠٠٢م).

- ثم يذهبون فيدعون إلى طي صفحة الدين من الوجود الإنساني، فيقولون: « إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة، ومن الإيمان إلى العقل، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلي المستنير »[1].

- ثم يذهب أصحاب هذا الغلو اللاديني إلى حد استفزاز الحس الإيماني لدى الأمة.. وإهدار قدسية مقدساتها.. فيقول أحدهم: « إن القرآن يقول كل شيء، دون أن يقول شيئًا »[2].

- ويقول آخر: « إن التقديس للكتب المقدسة خُلع عليها وأسدل بواسطة عدد من الشعائر والطقوس والتلاعبات الفكرية الاستدلالية.. والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية... ولن نستطيع تجنب مشاكل التفكير اللاهوتي إذا استمر نظرنا إلى القرآن كنص ديني متعالٍ، يحتوي على الحقيقة التي تجعل حضور الله دائمًا.. ولا بد من النظر إلى القرآن ليس على أنه كلام آت من فوق، وإنما على أساس أنه حدث واقعي تمامًا كوقائع الفيزياء والبيولوجيا »[3].

(١) د. حسن حنفي: [دراسات إسلامية] (ص١٢٨)، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٢م).

(٢) د. طيب تيزيني: [النص القرآني] (ص٢٣).

(٣) د. محمد أركون: [القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني] (ص٢٥، ٢٦) طبعة بيروت، سنة (٢٠٠١م)؛ و [الإسلام والتاريخ =

– ويقول ثالث: « لا بد من نزع هالة القداسة عن الوحي بتعرية آليات الأسطرة – [أي الأسطورة] والتعالي والتقديس التي يمارسها الخطاب القرآني »[1]؛ « وذلك لتحقيق مرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون »[2].

هكذا نجد أنفسنا بين لونين من الغلو والغلاة:

١ – غلو الذين رأوا في الحاكمية الإلهية إلغاء لسلطة البشر والأمة والإنسان.. فحكموا على الذين مارسوا هذه السلطة بالجاهلية والكفر والخروج من ملة الإسلام.

٢ – وغلو الذين فسروا حاكمية الإنسان على أنها رفض لحاكمية الله، فدعوا إلى إلغاء الدين والتدين من حياة الإنسان، بدءًا من الله.. إلى الوحي.. إلى النبوات والرسالات، وانتهاءً بالعقائد والمقدسات والشرائع والقيم والأخلاق..

ويبقى – ونحن نواجه هذه الألوان الشاذة من الغلو والتطرف – أن نعتصم بالوسطية الجامعة بين سيادة الشرائع السماوية وسلطة الأمة المستخلفة عن الله.

= والحداثة] (ص٢٥) – مجلة [الوحدة] – المغرب – عدد: سنة (١٩٨٩م) و [تاريخية الفكر العربي الإسلامي] (ص٢٨٤).

(١) د. علي حرب [نقد النص] (ص٢٠٣) طبعة بيروت، سنة (١٩٩٣م).

(٢) د. علي حرب صحيفة [الحياة] – لندن – في ١٨ – ١١ – ١٩٩٦م.

لقد أنزل الله ﷻ الكتاب والحكمة.. أي الصواب الذي جاء به الوحي.. والصواب الذي أبدعه العقل الإنساني..

ولقد رسمت الشريعة الإلهية الإطار لسلطة الإنسان فردًا أو جماعة - واستخلف الشارع ﷻ الإنسان؛ لعمران هذا الوجود في إطار الحلال والحرام الذي جاءت به شريعة السماء.. وهكذا تآخى « العقل » و « الدين » في القرآن الكريم، المعجزة الخاتمة والخالدة لخاتم الأنبياء والمرسلين - عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام.

* * *

الإِرْهَابُ

إذا كان غريبًا – بل وعجيبًا – أن تشن أمريكا – منذ « قارعة » ١١ سبتمبر ٢٠٠١م – حربًا عالمية على ما تسميه « الإرهاب » دون الاتفاق على معنى هذا « الإرهاب »!! بل وفي ظل الإصرار على رفض عقد مؤتمر دولي تتفق فيه الحضارات العالمية وثقافاتها على تعريف لهذا « الإرهاب »!!

إذا كان ذلك غريبًا وعجيبًا – بل ومريبًا – فإن السر في هذا الموقف الغريب والعجيب والمريب هو أن هذه الحرب العالمية الجديدة قد أرادها البعض حربًا على « الإسلام » تحت عنوان « الإرهاب »!

ويشهد على هذه الحقيقة – التي لم يعد بالإمكان إخفاؤها –:

١ – أن الرئيس الأمريكي « جورج بوش الصغير » قد وصف هذه الحرب في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م – أي قبل بدء التحقيق في « قارعة » ١١ سبتمبر – بأنها « حملة صليبية » أي حرب دينية مقدسة!

٢ – ولم تفلح محاولات الاعتذار عن هذا الوصف، بالقول: إنه مجرد « زلة لسان ».. حتى إن مدير إذاعة الفاتيكان « الكاردينال باسكوالي بورجوميو » قد أكد دقة هذا الوصف، وطبيعة هذه الحرب الأمريكية، فقال: « في الوقت الذي يدعو الفاتيكان إلى

التعقل، ويشجع العمل الدبلوماسي، ويدافع عن الحق الدولي – أي الشرعية الدولية – نرى في الجانب الآخر قوة عظمى – أمريكا – تقودها إدارة خولت لنفسها مهمة إنقاذية – مقدسة – واتخذت لهجة ومواقف صليبية »[1].

٣– كما عبر بابا الفاتيكان « يوحنا بولس الثاني » (١٩٢٢ – ٢٠٠٥م) عن: « خشيته من أن تثير الحرب الأمريكية على العراق صراعًا دينيًا... بين المسيحيين والمسلمين ».

٤– وقال الكاردينال « بيو لاچي » – مندوب البابا في المساعي الدبلوماسية لتجنب الحرب على العراق – أوائل سنة ٢٠٠٣م –: « إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام... »[2].

٥– وقال: « الأنبا يوحنا قلته » – نائب البطرك الكاثوليكي في مصر – « إن بوش يستخدم المسيح درعًا، والصليبية ثوبًا للدفاع عن مصالح أمريكا المادية... وإنه كان يقصد تمامًا معنى عبارة « الحملة الصليبية »... ولم تكن أبدًا زلة لسان... »[3].

٦– ووصف الرئيس الأمريكي الأسبق: « جيمي كارتر » أيديولوجية الإدارة الأمريكية التي شنت هذه الحرب، بأنها أيديولوجية « المؤتمر المعمداني للجنوب الأمريكي – ساوثيرن

---

(١) صحيفة [الحياة] – لندن – في ٢٩ – ٢ – ٢٠٠٣م.

(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] – لندن – في ٨ – ٣ – ٢٠٠٣م.

(٣) صحيفة [العربي] – القاهرة – في ١٦ – ٣ – ٢٠٠٣م.

بابتيست كونفنشون » المعروفة بالالتزام تجاه إسرائيل من منطلقات ثيولوجية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة[1].

٧- وأعلن السناتور الأمريكي « إدوارد كنيدي » والسناتور « باتريك ليهي »: « أن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب « بحماسة مسيحية »[2].

٨- ووصفت مجلة: « نيوزويك » - الأمريكية - قائد هذه الحرب - الرئيس « بوش الصغير » - بأنه « حامل البشارة... الذي يؤمن بأن حربه على العراق ستكون حربًا عادلة وفق المفهوم المسيحي، كما شرحه القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م)، وفصله كل من توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) ومارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) وآخرون... وأنه - بوش - عندما استخدم مصطلح « الأشرار » قد نبش هذه الكلمة مباشرة من المزامير... وأنه يفكر في سياسة خارجية تستند إلى الإيمان المسيحي... ويفكر في حرب باسم الحرية المدنية - بما في ذلك الحرية الدينية - في القلب القديم للإسلام العربي... ويحظى بدعم من قاعدته في الجناح السياسي للمؤتمر المعمداني الجنوبي، من أمثال القساوسة « ريتشارد لاند » و « فرانكلين جراهام » - الأب الروحي لبوش - والذي سب رسول الإسلام، وينتقد

---

(١) صحيفة [الشرق الأوسط] في ١٠ - ٣ - ٢٠٠٣م.

(٢) صحيفة [الحياة] في ٢٩ - ٢ - ٢٠٠٣م.

بالإسلام باعتباره إيمانًا عنيفًا فاسدًا!... ولا يخفي - مع المبشرين الإنجيليين - رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية - لا سيما في بغداد... »[1]!!

في الوقت الذي شهد فيه هؤلاء الشهود - ومعهم كثيرون من أهلها - على طبيعة هذه الحرب العالمية، التي شُنت على الإسلام عقب « قارعة » ١١ سبتمبر ٢٠٠١م... شهد كذلك كثيرون من المفكرين الإستراتيجيين الذين يخططون لصناعة القرار الأمريكي على ذات الحقيقة... حقيقة أن هذه الحرب ليست على « الإرهاب »، إنما هي حرب داخل الإسلام؛ ليتخلى عن طبيعته ومنهاجه الشامل للدين والدولة، والسياسة والقانون، والقيم والأخلاق، والدنيا والآخرة... وذلك حتى يقبل الإسلام - بدلًا من ذلك - بالقيم الغربية، والحداثة الغربية، والعَلمانية الغربية... والمبدأ المسيحي الذي يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ومن بين عشرات الشهادات الأمريكية والغربية على هذه الحقيقة، حقيقة أنها حرب على الإسلام، تحت دعاوى « الإرهاب » - الذي حرصوا على عدم تعريفه -... من بين عشرات الشهادات نختار - مراعاة للمقام - شهادة المفكر الإستراتيجي الأمريكي « فرانسيس فوكوياما » التي يقول فيها - بصريح العبارة -: « إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب... ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية...

---

[1] نيوزويك - الأمريكية - عدد ١١-٣-٢٠٠٣م.

وضد الدولة العَلمانية... وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطرًا أكثر أساسية – في بعض جوانبه – من الخطر الذي شكلته الشيوعية... والمطلوب هو حرب داخل الإسلام... حتى يقبل الحداثة الغربية... والعَلمانية الغربية... والمبدأ المسيحي: « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله... »[1]!

هذه الحقيقة – حقيقة أنها حرب على الإسلام؛ الرافض للحداثة الغربية، والقيم الغربية، والعلمانية الغربية... وليست حربًا على الإرهاب – الذي اتخذ – في هذه الحرب – وظيفة الستار لإخفاء الحقيقة والتمويه عليها – كان الحرص – طوال تلك السنوات – على رفض الاقتراحات العربية والإسلامية التي تلح على ضرورة عقد مؤتمر دولي لتحديد معنى « الإرهاب »، وللتمييز بينه وبين « الجهاد الإسلامي » و « القتال المشروع » لتحرير الأوطان من الاستعمار... الأمر الذي يزيد من أهمية وضرورة التحديد والتحرير للمعنى والمضمون والمفهوم الإسلامي للإرهاب.

إن المفهوم الغربي لمصطلح « الإرهاب - Terror » والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين، ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصًا عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي: إرهاب الدولة،

(1) المرجع السابق، العدد السنوي – ديسمبر سنة (٢٠٠١م) – فبراير سنة (٢٠٠٢م).

الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين[1]... إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم هذا المصطلح في لغتنا العربية... وفي القرآن الكريم - الذي هو كتاب العربية الأول... وديوان شريعة الإسلام - بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أيٍّ منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات.

- فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو « القول اللين »، وليس العنف والحرب، والقتال والإرهاب: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٧].

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة، ولم يقد جيشًا، ولم يخض حربًا ولا قتالًا... وإنما ولد ونشأ وبعث ومات ودفن في مصر... فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب...

- وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام فهي شريعة الصوفية المسالمة، والسلام الصوفي، التي بلغت في

(1) [معجم العلوم الاجتماعية] - مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

السلام والمسالمة حدودًا ومُثُلًا ربما عزت على التطبيق في نطاق هذا العالم.

ولذلك قال المسيح: إن مملكته ليست في هذا العالم!... فبراءة النصرانية – ومنهجها في الدعوة – من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروِّع الآمنين، براءة لا تحتاج إلى كثير حديث...

– وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية – في الدعوة إلى الله – فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني... منهاج الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن؛ لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذي يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين... بينما الإرهاب – بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون – هو سبيل النفاق – الذي هو أشد سوءًا من الشرك الصراح، والكفر البواح – وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال...

أمام أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم – بسورة الأنفال – إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل – هذا إذا حسنت النوايا... وساء الفهم – هو في وقوفهم عند المصطلح، مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي، الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام... ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية، التي ورد فيها هذا المصطلح – بسورة الأنفال – ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح –

ومشتقاته - بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لما تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب - بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه -...

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، يفتنونهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة، رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان... فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف - أي يردع - هؤلاء الذين مردوا على الخيانة، ونقض العهود، والغدر والعدوان... ما يردعهم عن هذه الخيانة وهذا العدوان...

يخاطب الله ﷻ رسوله ﷺ في هذه الآيات فيقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٨ - ٦٣].

فمعنى الإرهاب – هنا – هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين؛ كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين... وهو تخويف يثمره إعداد القوة الرادعة... وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي إنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال... فهو كالعقوبة الرادعة، إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها.. ولا علاقة لهذا الإرهاب – بهذا المعنى – بترويع الآمنين، وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه – الذي هو معنى مصطلح « الإرهاب Terror » في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفييتي – إبان الحرب الباردة... في منتصف القرن العشرين – للسلاح – الرادع – النووي والهيدروجيني، هو الذي أرهب – وردع – أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفييت... فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية... وكذلك الحال مع امتلاك باكستان للرادع النووي، هو الذي جعل استخدام الهند لسلاحها النووي ضد باكستان أمرًا مستحيلًا... بل لقد فتح توازن الردع النووي نوافذ السلام بين البلدين... ولو كانت اليابان – سنة (١٩٤٥م) – تمتلك الرادع النووي لأرهبت وأخافت أمريكا، ولنجت هيروشيما ونجازاكي من الكارثة النووية التي حاقت بهما في ذلك التاريخ!

وهنا يكون الإرهاب – بمعنى التخويف الرادع للأعداء – هو الضمان لتحقيق الأمن والسلام للجميع.

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية – مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال – معنى مصطلح الإرهاب في العربية – لغة القرآن الكريم –...

ونحن عندما نعود إلى « الراغب الأصفهاني » في كتابه: (المفردات في غريب القرآن) نجد أن معنى الإرهاب – في القرآن ولغته العربية – هو على الضد من العنف الذي يروع الآمنين ويرعبهم... فهو من « الرهبة» بمعنى المخافة، مع تحرُّز واضطراب!

وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذي يروع الآمنين ويرعبهم!.. وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح، وتصريفاته اللغوية: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] أي الذين يخافون ربهم ويخشونه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أي: خافوني واخشوني، ولا تخشوا أحدا سواي.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] أي: أفردوا الله ﷻ بالمراقبة والخشية؛ لأنه المتفرد بالألوهية وحده لا شريك له.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن

نكون نحن الملقين ﴿١١٥﴾ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٦] أي: أخافوهم خوفًا شديدًا.

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴿٢٩﴾ فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴿٣٠﴾ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴿٣١﴾ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢] أي: من الخوف.

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿١١﴾ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴿١٢﴾ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴿١٣﴾ لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر: ١١ - ١٤] أشد رهبة: أشد تخويفًا.

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]؛ ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: أي رجاء رحمتنا، وخوفًا من عذابنا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]، ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٢].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦، ٢٧].

فالرهبان: هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته... والرهبانية: هي المبالغة في الخشية من الله - وليس في أي من مضامين هذه المصطلحات القرآنية - يرهبون... فارهبون... تُرهبون... استرهبوهم... الرهب... الرهبة... الرهبان... الرهبانية - ما يشي من قريب أو بعيد للمعنى الغربي للإرهاب... معنى: العنف الذي يروِّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

وإذا كان بعض المرجفين المفترين يذهبون - رغم هذه الحقائق التي قدمناها - إلى اتهام الإسلام بالتأسيس للإرهاب..

فيقول الزعيم « الديني - السياسي » القس الأمريكي « بات روبرتسون » - مؤسس جماعة « التحالف السياسي المسيحي » - التي تسيطر على الكونجرس الأمريكي، والحزب الجمهوري، والإدارة الأمريكية - وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية... والأب الروحي للرئيس « بوش الصغير » الذي وُلد - بوش - على يديه ولادته المسيحية الجديدة...! يقول هذا القس: « إن الدين الإسلامي دعا إلى العنف... وإنه بالنظر إلى المعنى

وألسنتهم عندما اعتبروا « رفض القيم الغربية... ومعارضة الأطماع الغربية » إرهابًا وعنفًا دمويًّا!!! فإننا نلفت أنظارهم إلى « النفاق الفكري » الذي جعلهم يتهمون « الضحية » ويبرئون « الجناة »!! نقول لهم:

– ألم تروا الممارسات التي تتعرض لها شعوب إسلامية كثيرة، قد غدت ضحايا وفرائس للعنف الغربي الصهيوني... في فلسطين... والعراق... والشيشان... وتايلاند... وبورما... والفلبين... وغيرها من بلاد الإسلام؟!

– إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم، وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين – وأغلب اللاجئين على النطاق العالمي هم من المسلمين!!

– وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق؛ لتضع يدنا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ:

– عشرة قرون من الغزو والقهر الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي من « الإسكندر الأكبر » (٣٥٦ – ٣٢٣ق.م) – في القرن الرابع قبل الميلاد – وحتى « هرقل » (٦١٠ – ٦٤١م) – في القرن السابع للميلاد –...

– وقرنان من الحروب الصليبية (٤٨٩ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ – ١٢٩١م).

- وخمسة قرون هي عمر الغزوة الغربية الحديثة - التي بدأت منذ إسقاط غرناطة (٨٩٧هـ ١٤٩٢م) بالالتفاف حول العالم الإسلامي... ثم استعمرت سائر أقطار الإسلام - وهي الغزوة التي نعالج هيمنتها حتى هذه اللحظات!

- وإن نظرة على خريطة الشرق وعلى خريطة الغرب ستضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على الحقيقة التي تقول: أين هو الغزو والاحتلال والاستغلال الذي يروع الآمنين ويرهب الأبرياء؟! إن القواعد العسكرية الغربية تملأ ديار الإسلام.

- ومئات الآلاف من الجنود الغربيين يحتلون الكثير من أوطان عالم الإسلام.

- ومئات الشركات الغربية العابرة للقارات والجنسيات تنهب ثروات عالم الإسلام.

بينما تخلو خريطة الغرب من أي وجود للإسلام أو نفوذ للمسلمين... وحتى الأفراد المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية قد غدوا - وخاصة بعد « قارعة » سبتمبر (٢٠٠١م) - ضحايا لألوان من التمييز والترويع والسجن والاعتقال « بأدلة » سرية لا تعلن، ولا يعرفها حتى المحامون!! واعتقالات مؤبدة مدى الحياة، دونما إعلان لسبب الاعتقال!! فقط للاشتباه أو لأنهم مسلمون!! الأمر الذي يذكرنا بكلمات المستشرق الفرنسي « جاك بيرك » (١٩١٠ - ١٩٩٥م) التي قال فيها - عن تاريخ علاقة الغرب بالإسلام - : « إن الإسلام الذي هو

آخر الديانات السماوية الثلاث، والذي يدين به أزيد من مليار نسمة في العالم، والذي هو قريب من الغرب جغرافيًّا، وتاريخيًّا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم... قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب:

ابن العم المجهول...

والأخ المرفوض...

والمنكور الأبدي...

والمبعد الأبدي...

والمشتبه فيه الأبدي... »[1].

فأين هو الإرهاب الذي يروع الأبرياء والآمنين؟!

ومن هم الذين يقننون ويمارسون هذا اللون من الإرهاب؟!

– وإذا كان « التراث اليهودي » – وليست شريعة موسى عليه السلام – قد غدت مكونًا من مكونات الحضارة الغربية – التي تمارس مؤسساتها الإمبريالية – وليس إنسانها – هذه الممارسات مع الشرق الإسلامي... ومع المسلمين... فإننا نقرأ في هذا التراث اليهودي القديم دعوة إلى إبادة « جميع الشعوب الذين على وجه الأرض... وأكل كل الشعوب أكلًا... دون أن تقطع لهم عهدًا » « ولا تشفق عيناك عليهم... بل تمحو ذكراهم من تحت السماء –

---

(1) من حديث لجاك بيرك في ٢٧ – ٦ – ١٩٩٥م – انظر: حسونة المصباحي [العرب والإسلام في نظر المستشرق الفرنسي جاك بيرك] – صحيفة [الشرق الأوسط] في ١ – ١١ – ٢٠٠٠م.

مثل العماليق -!! » - [سفر التثنية، إصحاح ٧: ١ - ٦، ١٤ - ١٦، إصحاح ٢٠: ١٠ - ١٦، إصحاح ٢٥: ١٩].

كما نقرأ بهذا « الفكر » - في عصرنا الراهن - الفتاوى الحاخامية التي تضع هذا « التراث الدموي » في الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين... وذلك من مثل فتوى الحاخام الصهيوني « العقيد. أ. فيدان (زيمبل) »، التي يقول فيها للجنود الصهاينة المحتلين للضفة الغربية: « إن الهالاكاه - الشريعة - تحض على قتل حتى المدنيين الطيبين »[١]!!

فأين نحن، وأين العالم من هذا الإرهاب الذي يروع الآمنين، ويقتل حتى الأبرياء الطيبين؟!

وأين نحن، وأين العالم من هذا « الفكر » الذي ينظر ويبرر لهذا اللون من الإرهاب؟!

- إن المسلمين لم يكونوا هم الذين أبادوا شعوب الهنود الحمر... ودمروا حضاراتهم!

- وليسوا هم الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل - الذرية - في إبادة المدنيين الأبرياء في هيروشيما ونجازاكي باليابان سنة (١٩٤٥م)!

- وليسوا هم الذين سمموا تربة الأرض... وأحرقوا الغابات... وأبادوا ثلاثة ملايين من البشر في فيتنام!

---

(١) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] (ص ١٣٤، ١٣٥)، ترجمة: حسن خضر، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٤م).

- ولا هم الذين قتلوا قرابة المليونين من الشهداء في الجزائر!

- ولا هم الذين استخدموا اليورانيوم المنضب، والقنابل العنقودية، وسمموا البيئة، وقتلوا عشرات الآلاف، بل ودمروا حتى كنوز الآثار الحضارية النادرة والنفيسة في العراق!

- ولا هم الذين أبادوا سبعين مليونًا من البشر في حربين استعماريتين عالميتين شهدهما القرن العشرون!

- ولا هم الذين حولوا الكثير من بلاد الجنوب إلى مقابر للنفايات الذرية المدمرة والمهلكة للحياة! وجعلوا من حياة الأبرياء في الجنوب... ومن زراعاتهم حقول تجارب، ومصادر مكاسب للمبيدات الضارة... والأسمدة الفاسدة... والأدوية المنتهية الصلاحيات!

لم يكن المسلمون – في تاريخهم القديم والوسيط والحديث والمعاصر – هم الذين فعلوا ذلك، ولا شيئًا من ذلك..

ولو أن المسلمين قد أعدوا القوة التي أمرهم بها ربهم تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ... واتخذوا أسباب القوة والمنعة والعزة، فأخافوا الطامعين في ديارهم وثرواتهم، لما حدث هذا الإرهاب، الذي غدوا أولى ضحاياه في هذا العالم الذي نعيش فيه..

* * *

الاستحلال

الاستحلال: هو اتخاذ الحرام حلالًا، واعتقاد أن هذا الحرام حلال.. أي تحليل ما حرمه الله ﷻ، أو ما توافقت الفطرة الإنسانية السوية على تحريمه..

وقد يؤدي الاستحلال إلى الكفر إذا كان المستحلُّ عالمًا بأن هذا الفعل الذي استحله هو حرام، وكانت حرمته معلومة من الدين بالضرورة، أي ثابتة بالأدلة قطعية الثبوت والدلالة، ولا خلاف على حرمتها بين مذاهب الإسلام والمجتهدين من علمائه... وذلك مثل الذي يعتقد حِلَّ قتل النفس التي حرم الله بغير حق،.. أو يستحل الزنا،.. أو السرقة من المال الذي ليست له شبهة ملكية فيه..

والكفر هنا نابع من أن المستحلَّ لهذا الحرام قد اعتقد كذب الشارع – الله... ورسوله – عندما رفض ونقض وأنكر حكم التحريم، واستحل ما حرَّم الله – وما عُلم تحريمه من المحرمات الشرعية...

أما إذا كان استحلال المال لشبهة ملكية أو حق فيه – كالأموال العامة للأمة، والأموال المشاعة، التي للمستحلِّ نصيب فيها – أو كان الاستحلال نابعًا من تأويل – حتى ولو كان تأويلًا

فاسدًا – فإن المستحل لا يكفر بممارسة الاستحلال.. وإنما يدخل في عداد العصاة أو الفُساق..

– وقد يُستخدم مصطلح الاستحلال في غير هذا المعنى.. وذلك مثل الذي يطلب من شريكه أن يُحلّه من الاتفاق الذي انعقد بينهما.. أو أن يطلب المدين من الدائن أن يُحلّه من سداد الدين الذي استدانه منه، أو من سداده في الموعد الذي اتفقا على السداد فيه.. فالاستحلال – هنا – إنما يتم بالرضا والاتفاق، وليس بالقسر والاغتصاب..

– وصور الاستحلال كثيرة.. منها صور نمطية.. وأخرى تستحق أن تتوجه إليها الأفكار والأنظار.. ومنها ما هو تاريخي.. وما هو معاصر ومعيش.. وعلى سبيل المثال:

١ – فمن صور الاستحلال الشهيرة في التاريخ: استحلال الخروج والثورة على الحكام، انطلاقًا من القناعات المؤسسة على التأويلات التي تقول بجَوْر هؤلاء الحكام، وخروجهم عن منهاج الحكم الإسلامي العادل، واستحقاقهم العزل والتغيير..

ولقد ترتب على هذا اللون من الاستحلال للخروج المسلح والثورة على الحكام نزيف دموي، وفتن اجتماعية، كانت فرق «الخوارج» فرسانها لفترات غير قصيرة من تاريخ الإسلام..

ولقد يكون استحلال الخروج على الحكام مؤسسًا على توصيف دقيق وموضوعي لجَوْر هؤلاء الحكام، الأمر الذي يبيح أو يستوجب عزلهم واستبدالهم بآخرين.. لكن هذا الاستحلال

يبقى مصنفًا في دائرة « البغي » والتعدي والعصيان، إذا لم يكن للقائمين به تأييد شعبي، وإعداد ثوري يجعل نجاح هذا الخروج للتغيير الثوري مؤكدًا أو راجح النجاح؛ لأن الخروج دون تأييد من جمهور الأمة هو افتئات على سلطة الأمة وإرادتها.. كما أن الخروج دون إعداد يضمن له رجحان النجاح، تترتب عليه من سلبيات الفتن وتعطيل مصالح الناس ما يفوق إيجابيات هذا الخروج؛ ولهذا تعددت في الإسلام سبل تغيير المنكر – وفق الإمكانات.. وضمانات نجاح التغيير – من التغيير باليد.. إلى التغيير باللسان.. إلى التغيير بالقلب – الذي يشبه رفض العصيان المدني غير العنيف – وفي تقعيد ذلك جاء الحديث النبوي الشريف: « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »[1].

ومع كل ذلك، فإن الخروج على الحكام الظلمة لتغييرهم، حتى لو لم يستجمع هذا الخروج شروطه الشرعية، لا يُخرج أصحابه من إطار الإيمان والأمة المؤمنة؛ لأنه اجتهاد يُؤجر أصحابه على اجتهادهم فيه حتى ولو كان اجتهادًا خاطئًا.. ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩].

٣- ومن الصور التاريخية للاستحلال: صورة الاستعمار والإمبريالية.. وهي صورة من أسوأ صور الاستحلال. وذلك

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد.

عندما استحلت الدول الاستعمارية غزو البلاد المستعمرة، واقتحام حدودها، وانتهاك حرمة سيادتها على أرضها، وقهر شعوبها قهرًا حضاريًا وثقافيًا – وأحيانًا دينيًا – ونهب ثروات هذه الشعوب، واستثمار « فائض النهب الاستعماري » لبناء رفاهية البلاد الاستعمارية بواسطة هذا الحرام المنهوب من ثروات المستعمرات..

٣- كذلك عرف التاريخ الاستعماري ذلك اللون من « الاستعمار الاستيطاني » الذي استحل فيه المستعمرون أرض الشعوب المستعمرة، فطردوا هذه الشعوب من أخصب بقاع أرضها الزراعية، وأحلوا بني جلدتهم محل أبناء البلاد في هذه الأرض، وأقاموا حواجز « الفصل العنصري » بين البيض والملونين « ستارًا أيديولوجيًا » لحرمان أهل البلاد من أراضيهم الخصبة، بل ولتهجيرهم من أوطانهم – كما حدث في الحروب الصليبية (٤٨٩ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ – ١٢٩١م).. وفي غزو البيض لأمريكا الشمالية واللاتينية.. وأستراليا.. ونيوزيلندة.. وجنوب أفريقيا.. وزيمبابوي.. والجزائر.. وكما هو حادث الآن في فلسطين..

٤- ومن الصور المعاصرة للاستحلال – في إطار القانون الدولي – ما يسمى « بالحرب الاستباقية » التي تشنها قوة عظمى على بلاد ضعيفة؛ طمعًا في ثرواتها، وذلك تحت ستار دعاوى ملفقة، تدعمها وتروجها « الصور الإعلامية المصنوعة »، التي تزيفها وسائل الإعلام الإمبريالية، تبريرًا لهذه « الحروب الاستباقية »

الخارجة على القانون الدولي، والمستحلة والمنتهكة لحرمات هذا القانون.. كما هو حادث الآن في العراق.. وأفغانستان..

٥- كذلك من الصور المعاصرة للاستحلال، تلك الضغوط التي تمارسها الدول الكبرى على الحكومات الضعيفة، الفاقدة لتأييد شعوبها، لفرض صفقات السلاح ذات الأرقام الفلكية في أثمانها.. فرضها على « دول » لا تملك جيوشًا تستطيع أن تستخدم هذا السلاح، ولا إرادة لها في التصرف في هذا السلاح! وإنما الهدف من وراء هذا الاستحلال هو نهب ثروات هذه الدول مقابل هذا السلاح - الذي يتحول إلى طعام للصدأ في الصحراء - وذلك لتشغيل مصانع السلاح في الدول الكبرى، وترويج تجارته، التي غدت أولى التجارات وأضخمها في هذا العصر الذي نعيش فيه.

٦- كذلك من صور الاستحلال المعاصرة - في إطار العلاقات بين الدول - استضعاف الدول الإمبريالية الكبرى - في الشمال - لكثير من الدول الضعيفة - في الجنوب.. وفي العالم الإسلامي تحديدًا - لنشر القواعد العسكرية الأجنبية التي تغطي عشرات منها أرض تلك البلاد، منتهكة أمنها، ومهدرة سيادتها على أرضها، ومبددة مقومات استقلالها، وحرية إرادتها.. وذلك دون أن تحدث أية استشارة لشعوب تلك البلاد في إقامة هذه القواعد العسكرية على أراضيها، وفق الديمقراطية التي تتشدق بها تلك القوى العظمى!

لقد نشرت مجلة «نيوزويك» الأمريكية – عدد ٤ فبراير سنة (٢٠٠٣م) – خارطة بالقواعد العسكرية الأمريكية التي زرعت في بلاد المشرق العربي وحده، فإذا بها ٣٥ قاعدة عسكرية، منها ٣٠ قاعدة في بلاد مجلس التعاون الخليجي وحدها!.. ولقد ضرب العراق سنة (٢٠٠٣م) من هذه القواعد القائمة على أرض عربية وإسلامية، في سابقة لم تحدث من قبل في التاريخ.. كما ضرب من الأساطيل الحربية الأجنبية المحتلة لبحار ومحيطات هذه البلاد العربية والإسلامية..

نعم.. لقد حدث ويحدث هذا الاستحلال، في الوقت الذي لا يوجد فيه للعالم الإسلامي ولا للدول الجنوب «شرطي مرور» ولا «سفينة صيد» على الأراضي الغربية والمياه الغربية!

٧- وإذا كان حلف الأطلنطي قد أنشئ في إبريل سنة ١٩٤٩م «للدفاع عن أراضي الدول المشتركة فيه»..

فمن الذي أحلَّ له أن يحارب اليوم على أرض أفغانستان؟! أليس هذا لون صارخ من ألوان الاستحلال لأرض دولة غير مشتركة في هذا الحلف الأوروبي؟!

٨- ولون آخر من ألوان الاستحلال المعاصر، يتمثل في دفن النفايات الذرية.. والسامة.. والضارة بالحياة والأحياء في بلاد الجنوب – بالختل والتحايل حينًا.. وبالضغط حينًا آخر.. وبرشوة الحكام الفاسدين الذين نصّبهم الاستعمار أو تحرسهم

جرايه – في أحيان أخرى.. حتى لقد غدا هذا البلاء الكارثي لونًا خطيرًا من ألوان الاستحلال..

ووثيق الصلة بذلك، تصريف « المبيدات الضارة » و « الأسمدة الفاسدة » و « الأدوية التي انتهت صلاحياتها » و « الأطعمة الفاسدة » في أسواق الدول الفقيرة في الجنوب؛ استحلالًا للمال الحرام، ولصحة شعوب تلك البلاد وحياة شعوبها وبيئتها! وفي ذلك كله إستحلال لقتل نفوس الشعوب التي حرم الله..

٩ – وإذا كنا ندين ونحرّم ونجرّم تجارة الرقيق، التي استحل أصحابها اختطاف آلاف من الرقيق في إفريقيا وآسيا، فإن علينا أن نسلط كل الأضواء المناسبة على الاستحلال الغربي – الذي باركته الكنيسة – استحلال الاختطاف والأسر لأكثر من أربعين مليونًا من الزنوج الأفارقة، الذين سلسلوا في سلاسل الحديد، وشحنوا في سفن الحيوانات، لتقوم على دمائهم وعظامهم وأرواحهم رفاهية البيض في أمريكا.

١٠ – وإذا كنا ندين ونحرّم ونجرّم استحلال الحرام الذي يمارسه فرد أو جماعة هامشية – من حيث العدد والنفوذ – ضد متجر من المتاجر المملوكة لمخالف لنا في الدين والاعتقاد.. وكذلك الاستحلال الذي يتخذ شكل السرقة لسلعة من محل تجاري خارج ديار الإسلام..

إذا كنا ندين ونحرّم ونجرّم هذه الألوان من الاستحلال للحرام.. فإن علينا أن نسلط الأضواء المناسبة التي تكشف

الجرائم الكبرى التي تمثلها ألوان الاستحلال الإمبريالي ضد المستضعفين في العصر الذي نعيش فيه.. وإلا كنا كمن يبصر القذى في عين الضعيف، ويغفل – أو يتغافل – عن الأخشاب المليئة بالأشواك التي تملأ عيون الجبابرة والطواغيت.

إن الحلال هو الحلال.. والحرام هو الحرام.. سواء أكان ذلك بمعايير القيم الدينية – التي اتفقت فيها وعليها مختلف الديانات – أو كان ذلك وفق سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.. أو كان ذلك وفق القانون الدولي والشرعة الدولية، التي بذلت الإنسانية الغالي والنفيس لبناء منظومتها وتأسيس منظماتها.. والتي جاءت الإمبريالية الجديدة لتعصف بها بهذه الألوان الخطيرة والصارخة من الاستحلال.

* * *

المصادر والمراجع

ابن رشد:

١- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة (١٩٨٣م).

ابن القيم:

٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٣م).

ابن منظور:

٣- لسان العرب، طبعة دار المعارف، القاهرة.

أبو البقاء الكفوي:

٤- الكليات، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، طبعة دمشق، سنة (١٩٨٢م).

أحمد بن حنبل - وآخرون -:

٥- عقائد السلف، جمعها ونشرها: د. علي سامي النشار، د. عمار الطالبي، طبعة دار السلام، سنة (٢٠٠٧م).

إسرائيل شاحاك:

٦- الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ترجمة: حسن خضر، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٤م).

الأشعري - أبو الحسن -:

٧- مقالات الإسلاميين، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، سنة (١٩٦٩م).

البلخي:

٨- مقالات الإسلاميين.

التهانوي:

٩- كشاف اصطلاحات الفنون، طبعة الهند، سنة (١٨٩١م).

د. حسن حنفي:

١٠- من العقيدة إلى الثورة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٨م).

١١- التراث والتجديد، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٠م).

١٢- تربية الجنس، المقدمة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٧م).

١٣- دراسات إسلامية، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٢م).

سيد قطب:

١٤- معالم في الطريق، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٠م).

د. طيب تزيني:

١٥- النص القرآني.

عبد الوهاب خلاف:

١٦- أصول الفقه، طبعة الكويت، سنة (١٩٧٢م).

علي بن أبي طالب - الإمام -:

١٧- نهج البلاغة، طبعة دار الشعب، القاهرة.

د.علي حرب:

١٨- نقد النص، طبعة بيروت، سنة (١٩٩٣م).

١٩- صحيفة [الحياة]، لندن، في ١٨ - ١١ - ١٩٩٦م.

الغزالي - حجة الإسلام -:

٢٠- الاقتصاد في الاعتقاد، طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

٢١- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٧م).

القرطبي:

٢٢- الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية.

٢٣- مجمع اللغة العربية: [المعجم الكبير]، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

٢٤- معجم ألفاظ القرآن الكريم، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

٢٥- معجم العلوم الاجتماعية، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٥م).

٢٦- المعجم الوسيط، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٢م).

د. محمد أركون:

٢٧- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠١م).

٢٨- تاريخية الفكر العربي.

محمد عبد السلام فرج:

٢٩- الفريضة الغائبة.

محمد عبده - الأستاذ الإمام -:

٣٠- الأعمال الكاملة [للإمام محمد عبده]، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٣م).

د. محمد عمارة:

٣١- الصحوة الإسلامية في عيون غربية، طبعة نهضة مصر القاهرة، سنة (١٩٩٧م).

٣٢- تيارات الفكر الإسلامي، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٨م).

٣٣- الفريضة الغائبة: عرض وحوار وتقييم، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٣م).

المودودي - أبو الأعلى -:

٣٤- الحكومة الإسلامية.

٣٥- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ترجمة محمد كاظم سباق، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٥م).

نيكسون - ريتشارد -:

٣٦- الفرصة السانحة، ترجمة: أحمد صدقي مراد، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٢م).

موسوعات ودوريات:

١- دائرة المعارف البريطانية.

٢- الأهرام، القاهرة.

٣- الحياة، لندن.

٤- الشرق الأوسط، لندن.

٥- العربي، القاهرة.

٦- قضايا إسلامية، بيروت.

٧- نيوزويك، أمريكا.

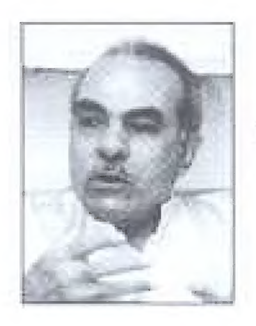
٨- نيويورك تايمز، أمريكا.

٩- الوسط، لندن.

١٠- وطني، القاهرة.

***

السيرة الذاتية للمؤلف



* الدكتور / محمد عمارة.

* مفكر بارز، واكب الحركة الفكرية المعاصرة، ونفذ إلى أعماقها.

* ولد بمصر سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م).

* درس بالأزهر تسع سنوات - حتى نهاية المرحلة الثانوية - ثم في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ومنها نال درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

* أنجز دراساته العليا بكلية دار العلوم - في الفلسفة الإسلامية، وكانت أطروحته للماجستير عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، أما موضوع الدكتوراه فكان عن (الإسلام وفلسفة الحكم).

* متفرغ للعمل الفكري، قدم للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من ١٠٠ كتاب - ما بين تأليف وتحقيق لتراثنا - القديم منه والحديث - وتبرز في أعماله الفكرية اهتماماته بقضايا الفكر الإسلامي المتنوعة قديمها وحديثها، وكذلك قضايا التراث الفكري والفلسفي والحضاري - في محاولة جادة للإسهام في صياغة المشروع الحضاري العربي الإسلامي البديل عن مشروع

التغريب، كما تتميز كتاباته بالنظرة النقدية لتراث حقبة التراجع والجمود في تاريخنا الحضاري، وبقراءة جديدة لأصولنا الفكرية في ضوء متغيرات العصر، وبمنطق الأصالة الإسلامية المعاصرة المتميزة.

* من أهم كتبه: الأعمال الكاملة لرواد عصر النهضة؛ الطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، كما كتب في (الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري) و (الإسلام وحقوق الإنسان) و (الغزو الفكري وهم أم حقيقة) و (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) و (العلمانية ونهضتنا الحديثة) و (الإسلام والمستقبل) و (الاستقلال الحضاري).

* * *

رقم الإيداع

٢٠٠٨/١٩٧٥٣

الترقيم الدولي I.S.B.N

٩٧٧-٣٤٢-٦٦٨-٨

الكتاب في سطور

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]. ولا سبيل إلى ذلك التعارف - ومن ثم التعايش والتعاون - إلا بالحوار؛ ومن ثم كان تحديد مفاهيم المصطلحات الدائرة في المحاورات شرطًا ضروريًا لنجاح ذلك الحوار - سياسيًا كان أو ثقافيًا أو دينيًا أو حضاريًا؛ وإلا كان الحوار أشبه ما يكون بحوار «الطرشان».

ومن أجل تحقيق هذا المقصد جاء هذا الكتاب لتحديد المضامين والمفاهيم لعشرة من أشهر المصطلحات حول الظاهرة الإسلامية المعاصرة.

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٣٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com



ISBN: 977-342-668-8